The Oman Library at MEI
3 0347 0000 16705

الريحانيات

وهي مجموعة مقالات وخطب
وشعر منثور

تأليف
امين ريحاني

الجزء الثاني

يحتوي على خطب ومقالات انتقادية وشعر منثور

مزيناً بناظر رسم للمؤلف

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٩١٠

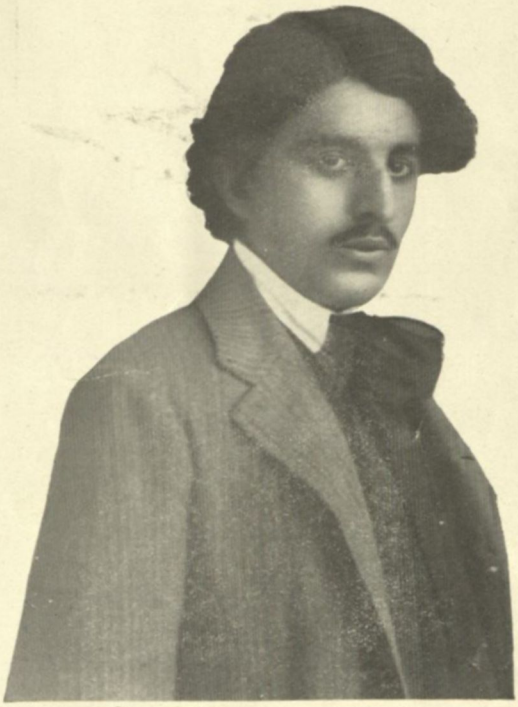

امين ريحاني

ايار سنة ١٩١٠

الريحانيات

وهي مجموعة مقالات وخطب

وشعر منثور

تأليف

امين ريحاني

الجزء الثاني

يحتوي على خطب ومقالات انتقادية وشعر منثور

مزيناً باطهر رسم للمؤلف

طبع في المطبعة العلمية لبوسف صادر في بيروت سنة ١٩١٠

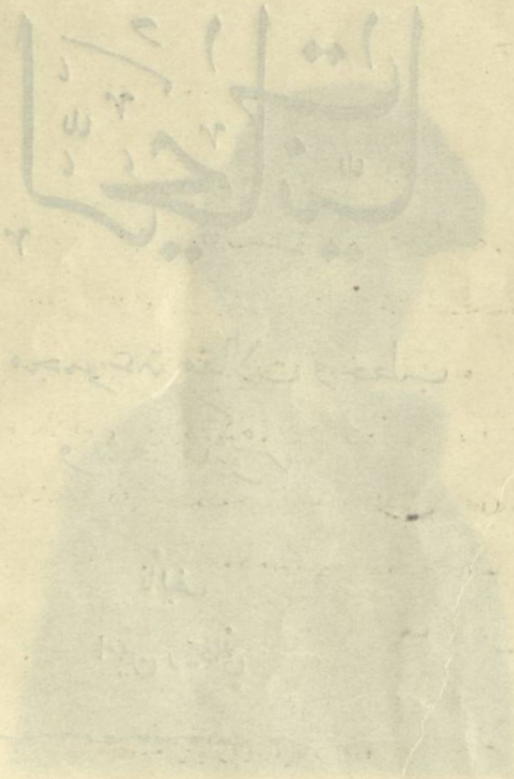

في الباب

لا المجد والشهرة امنيتي القصوى . ولا الجاه والثروة . ولا السيادة والعظمة . امنيتي الجوهرية الاولى هي ان اكون بسيطاً في اعمالي . صادقاً في اقوالي . مستقيماً في مبادئي وآرائي . فطرياً في تصرفي وسلوكي . حراً فيما احب وما اكره . وبكلمة أخرى اود ان اكون دائماً نظيف العقل والقلب والجسم . بعيداً عن التصلف والزخرف والعجب والمصانعة . بعيداً عن الجبن والخوف والتذبذب . بعيداً عن الخجل الذي يذل النفس و يميت الحقيقة . بعيداً عن الكذب والجربزة والمداهنة والرياء . عليّ أن اقبل ما يقابلني من الصعوبات في مسالك الحياة باشاً جاداً ثابتاً صابراً متجلداً . عليّ أن اناهض الفساد والضلال في الناس وألا اكره احداً من الناس . أود أن اعيش دون ان ابغض احداً . واحب دون ان أغار من احد . وارتفع دون ان اترفع عَلَى احد . وائقدم دون ان ادوس من هم دوني او احسد من هم فوقي . هذي هي سنتي وللغير ان يتخذوا لهم سنة توافقهم . للغير ان يسلكوا ذات المسلك اذا شاءوا واستطاعوا . ليس من شأني ان اتداخل في شؤونهم ولا أن ارشدهم منذراً او

اعظهم متأمراً متهدداً . عليَّ ان اعيش صادقاً مسالماً مستقيماً . وللناس ان يعيشوا كما يطيب لهم . لا احب ان انصح احداً متى كانت نصيحتي بنت فكرة زائلة لابنت حقيقة دائمة . ولا ان انضم الى حزب من الاحزاب . او طائفة من الطوائف . او جمعية من الجمعيات مهما كانت صبغاتها . ومهما تسامت غاياتها . ولا ان اساعد احداً لا يعمل في مساعدة نفسه . واذا كان فيَّ ما يلهم الناس الى الخير و يرفعهم درجة واحدة في سلم الرقي العقلي الروحي احب ان اظهره بالمثل والاشارة واللطف لا بالانذار والوعيد والتأمر . أحب ان تشع حياتي ولا احبها ان تفرقع . احب ان تكون كاحد الكواكب السماوية . لا كسهم من الاسهم النارية

امين

بيروت في اول ايار سنة ١٩١٠

الخطب

في العزلة[1]

١

جاء في الامثال ان في الحركة بركة وليس فيكم عَلَى ما اظن من يجهل ذلك · ليس فيكم من ينكر صحة هذا المثل السائر ولا يعمل بهِ · واما هذا الفقير فانهُ لا يعتقد بصحتهِ ولا يعمل بموجبهِ · وقد خطر لي منذ سنين ان اعكس الآية واجري عَلَى ضدها · فقلت ان كان في الحركة بركة ففي القلوات بركات · وفي القعود سعود وفي الهدّو نموٌّ وسمو · واشياء اخرى من هذا الباب · ولا يخفى عليكم ان في هذه الامثال حكمة تختلف عن حكمة المثل السابق بل تختلف اختلافاً جوهرياً يحاكي اختلاف النفس عن الجسد · فالحكمة فيها روحانية معنوية وحكمة من يقول ان في الحركة بركة حكمة مادية عملية تجارية · لذلك آثرت الاولى عَلَى الثانية · فاوقفت عملي وخرجت من الوسط المضطرب لافكر قليلاً في ما انا فيه لارى اين انا من نفسي ومن الله · وحقاً اني تألمت لما وقفتِ متأملاً : تألمت لما رأيتني قريباً من الناس بعيداً عن نفسي وعن الهي · فتركت الحركة والبركة للعمال ولبني الاشغال وسلكت في نور الحكمة والحقيقة مسلكاً جديداً · وهذه حالة لا بدَّ منها لكل من تنبهت فيهِ الروح · هي طور من اطوار

(١) خطبة القيت في جمعية شمس البر ببيروت في ١٩ اذار سنة ١٩٠٨

الفيلسوف الاولى · هي اول ريشةٍ في جناح الشاعر هي اول حادثةٍ خطيرة في حياة الاولياء والانبياء · هي اول عقدة روحية عقلية يعجز عن حلها اكثر المفكرين · وجدت نفسي في هذه الحالة متألماً متحيراً متردداً · تألمت كثيراً لما رأيتني في الغربة بين شعب لا يعرف معنى السكينة ولا الراحة ولا الجمال · وجدت نفسي في بلادٍ فيها الحركة دائمة متواصلة · واما البركة فيقال فيها ما يقال في بعض الامراض انها حادة منقطعة · وجدت نفسي بين قوم يأكلون ماشين · ويقرأون آكلين · ويعدّون النقود راكضين · ويعبدون الاوثان قائمين قاعدين · بل يقدمون ارواحهم واجسادهم ضحية لآلهة ما سمعت باسمائها العصور الغابرة · عشت زمناً بين قوم يقال انهم مسيحيون ولكنهم في الحقيقة وثنيون · وثنيون بترفهم وبطرهم · وثنيون باخلاقهم وشعورهم · وثنيون بمطامعهم واستئثارهم · وثنيون بتعدد آلهتهم · واما هياكل هذه الآلهة واصنامها فانك لا تشاهدها قائمة في الاسواق بل ينبغي ان تنظر اليها بعين الروح فتراها في كل حيٍ وجماد يتحرك هناك تعال اذاً معي لاريك آلهة هذا الزمان الجديدة · آلهة هذا التمدن الحديث · تعال معي لاريك من الهياكل والاصنام الواناً واشكالاً · فهذا صنم من القطن لآله البورص وذاك صنم من الفحم لآله المعادن · هذا صنم من السكّر لآله الحقول وذاك صنم من الخشب لآله الغابات · وههنا هياكل من المرمر والرخام لآله التجارة وهناك الهيكل الاكبر

المشيد من حجارة الذهب والفضة لاله الآلهة . اله الامة . اله المال .
والناس هناك يعدّون اموالهم راكضين من هيكل الى آخر ومن اله الى
اخيهِ . وابداً تراهم لهذه الآلهة الغريبة ساجدين . فيعبدونها
ويخدمونها ويموتون في سبيلها . يعبدونها في كل حالاتهم . يخدمونها
في حركاتهم وفي سكناتهم . فخرجت من بين هؤلا المشركين طالباً في
البرية ربي مثل ابراهيم . خرجت من بينهم وانا على اعتقاد ان المرء ان
قرب من العالم الجديد بعد عن الطبيعة وعن الشعر وعن الجمال الروحي
وعن الله . ولذلك حوّلت وجهي الى مشرق الشمس وعدت في طريقي
الى ارض الانبياء عدت الى وطني لاقترب من جمال الشرق الشعري
وجماله الطبيعي وجماله الروحي بل الالهي . اي الجمال الدائم الابدي
الذي لا تشينه الحالة السياسية المختلة ولا الحالة الاجتماعيّة المعتلة .

عدت الى مسقط رأسي باحثاً عما اضعته هناك ايام الصبا . افلتُّ
من اشراك التمدن والحمد لله وفررت هارباً الى الفريكة . على كتف
الوادي وبالقرب من كروم اجدادي نصبت خيامي . فوق نهر الكلب
وقبالة جبل صنين رفعت رايتي البيضاء عوضاً عن العلم الاحمر الذي
وضعتهُ في يدي احدى بنات الحرية في البلاد الاميركية . رفعت
علم السلم فوق فاسفتي الاجتماعية بعد ان كان علمي علم القتال وكتبت
على بابي — في اصلاح الفرد اصلاح الامة وفي تهذيب الشعب اصلاح
الرؤساء والحكام — . نعم سادتي ان التهذيب خير من التحزيب

والتخريب . عَلَى ان ذلك ليس من موضوعي هذه الليلة فالمجال ضيق لمثل هذا البحث واضيق منهُ منبر هذه الجمعية .

عدت الى وطني طالباً فيه راحة العقل وراحة النفس وراحة الجسد . بل طالباً فيه شيئاً اشرف من كل ذلك واسمى - طالباً في الطبيعة ومنها ما ينسي المرء عقله ونفسهُ وجسدهُ عدت ياسادتي لا كما عاد يوليوس قيصر الى رومية او هوجو الى باريس . عدت قانعاً شاكراً راضياً وتذكرت السندباد لما عاد من سفراتهِ وابا العلاء لما عاد الى معرتهِ . فشكرت الله كالسندباد عَلَى سلامتي في الغربة . ولجئت كابي العلاء الى العزلة في قريتي هرباً من الحضارة ومتاعبها . وشغفاً بالطبيعة وجمالها . وحباً بالتأمل ولذاتهِ . وتقرباً من الله و بركاتهِ . فدخلت هذه المدينة كما يدخل الكهان الهيكل او اللص البيت . دخلتها من باب السر فلم يدر بي من الاخوان احد . وصعدت الى الجبل ولم يدرِ بي احد . واقمت هناك زمناً في ظلال الصنوبر ولم يدرِ بي احد . فاضطجعت عَلَى العشب ورأسي في ظل وزّالة زاهرة — انا للطبيعة وانا اليها راجعون — وشكرت الله شكراً جزيلاً ووددت لو كان بيني و بين المدن اضعاف ما بيني و بينها من الوهاد والجبال والبحار .

واظنني اخطأت مرة فرددّت بصوت عالٍ صدى صوت نفسي . وما علمت ان للاشجار عيوناً وللصخور آذاناً . بل ما علمت ان النهر يحمل الى المدينة صدى صوت الوادي وصدى ساكنيه . ففي صباح

يوم من فصل الشتاء سمعت حديثاً دار بين شجرة كبيرة من الصنوبر واخرى صغيرة او بين ام الغابة واحدى بناتها قالت الابنة : من هذا الغريب الذي لا يخاف السكنى معنا في هذا الشتاء. فاجابت الام: ما هو بغريب يابنيتي . وانما هو من نبات هذه الارض ومن سنديان هذه الجبال . هو من ابنائنا يابنية . وقد طالما حملتهُ وحمَّلتهُ من ثماري لما كان صغيراً . قد طالما فرشت لهُ من ريشي وظلي ما يزيل تعب الجسد وهم الفؤاد و بعثت اليهِ من ارج نسيمي ما ينعش النفس ويحييها ومع ذلك فقد هجرنا زمناً طويلاً وعاد اليوم ليكفر عن ذنوبهِ امامنا وفي ظلنا . حبيهِ يابنتي فانهُ يحبنا .

وبمثل هذا كانت الاشجار تفشي اسراري الى النهر والنهر يحملها الى البحر والبحر يلقيها بلا اكتراث عَلَى شواطىء هذه المدينة . وقيل ان الصيادين سمعوا ذات يوم في هدير الامواج اصواتاً غريبة مطربة فظنوا ان احداً من الجن يكلمهم بلساننا العربي الشريف . وقيل انهم فهموا من الغاز الامواج شيئاً يسيراً واشاعوا في البلد اشاعات تحوَّلت بعد ايام خرافاتٍ وخزعبلات تشير كلها الى ان في وادي الفريكة ناسكاً تسجد لهُ الصخور وتخاطبهُ الاشجار وتكلمهُ السواقي وتستشيرهُ الطيور . فاستغربت الخبر كما استغربهُ الناس وبعد ان فتشت في الوادي عن الناسك واعياني التفتيش كتبت الى احد الاصدقاء كتاباً هزأت فيهِ من هذه الخرافات التي قصها البحر عَلَى الصيادين واذاعها

الصيادون في المدينة فزاد الكتاب الطين بلة لانَّ الادباء الذين سخروا مثلي بهذه الخرافات اعتقدوا بعدئذٍ صحتها وطفقوا ينشرونها في اندية الادب فتجسمت الاشاعة حتى استحالت خرافة واصبحت في اعتقاد الناس حقيقة راهنة . وكذلك تنشأ الخرافات وتستولي عَلَى الناس . فاهتمَّ بعض اعضاء هذه الجمعية بالامر وكتب احدهم اليَّ لاصدقهُ الخبر . ثم جاءني من الجمعية نفسها كتاب تسألني بهِ ان اتحفها بشيءٍ من اخبار الناسك واسفارهِ . وبعبارةٍ اوضح دعتني الى الخطابة في حفلتها السنوية منذ سنتين فلبيت الدعوة وبعثت الى الجمعية بشيءٍ من ثمار نفس الناسك المذكور[1] ولبثت انتظر جوابها وبينما انا اتوقع منها كتاب شكرٍ جاء في الرسول بعد اسبوع ومعه الثمار التي بعثتها . ثماري اعيدت اليَّ . ردَّت الجمعية هديتي بلا عذر ولا شبه عذر . ارجعت الثمار واغفلت الاعتذار وبعثت مع الرسول تقول قد فحص الطبيب ثمارك فوجدها مضرة بصحة هذه الامة . وجد فيها مكروبات غريبة خبيثة عديدة فكانت هذه منها اهانة فوق اهانة لكنني قبلتها شاكراً وحسبتها من جملة ما ينبغي ان يعرض عنه المرء في عزلته . حسبتها مما ينبغي ان نترك وراءنا اذا حوَّلنا وجهنا نحو شمس النفس الشارقة من وراء جبال الحقيقة المرسلة ما فاض من نورها فوق مروج الشعر وبحيرات الخيال . فظلَّ الناسك والحال هذه هائماً في واديه . ولم

(١) وهي خطبة « هنا وهناك وهنالك » التالية .

يدرِ ان الجمعية لم تزل تناديه . عَلَى انهُ لم يكد يرفع طرفهُ الى سماء الروح ويلمس بيدهِ ما تجسم امامهُ من السعادة الروحية الحقيقية حتى جاء هذا الشتاء وفيه ما كتب له بل عليهِ من الشدة والبلاء . فهجر صومعته في الجبل مضطرًا واعتاض عن شذا الاودية بروائح الادوية وعن الاولياء بالاطباء . مع ان الفرق بين الاولياء والاطباء قليل لا يستحق الذكر . فكم من طبيبٍ فاضلٍ يستحق ان يطوَّب قديساً او يدعى ولياً بعد موته . فقد تعرفت بفضل آلامي العصبية بعددٍ وافرٍ من هوءلاء الافاضل و بان لي بالاختبار ما كنت اجهلهُ . تحققت ان الفرق بين الطبيب والكاهن كالفرق بين الكاهن والمحامي . كلهم نفعنا الله بعلمهم و برّهم يتعاطون الجربزة . كلهم يتاجرون بشيءٍ من الحقيقة و بكثير من الخزعبلات والاوهام . على ان الطبيب ارفع درجة من الكاهن والكاهن ارفع درجة من المحامي . والثلاثة يا سادتي من سلالةٍ واحدة ومن بطن واحد . نعم ان الطبيب والكاهن والمحامي ثلاثة عقبان من بيضة واحدة . ومن الشرور ما كان لازماً للبشر . من الشرور ما هو نافع للانسان . وقد كنت اسيراً لشيءٍ منها في هذه المدينة لما جاء في رئيس هذه الجمعية فأسرني ايضاً بلطفه وجميل ادبهِ وكلمني مرةً اخرى في امر الخطابة . الحَّ عليَّ الرئيس وعدد من الادباء باسلوب جعلني اظن ان الجمعية تنوي ان تحاصرني في الفريكة وتعقد جلستها هناك اذا كنت لا اتكلم في حفلتها هنا . فخفت من

المضايقة في عزلتي ونتيجة خوفي ايها الكرام وقوفي امامكم الآن خطيباً. عفواً سادتي ما جئتكم خطيباً الليلة بل محدثاً . وسأحدثكم في موضوع العزلة ومنافعها ومضارها .

٢

العزلة اما داء واما دواء واما غذاء . هي داء لمن لا يجد في نفسهِ ما يغنيهِ عن معاشرة الناس ولو زمناً قصيراً . وهي دواء لمن سئمت نفسهُ من ملاذ هذا المجتمع وموبقاتهِ من سرورهِ وشروره فيعود الى امهِ الطبيعة لتداويه بنور شمسها وعليل هوائها وشذا رياحينها . وهي غذاء لمن يخرج من الهيئة الاجتماعية والنفس نافرة من محيط هي غريبة فيهِ . يعتزل الناس طالباً في الطبيعة راحة التي لا يعرفها الناس . واللذات التي لا يشعر بها الناس . والتعزية التي قلما تعزي عامة الناس . نفس الاول خامدة جامدة . ونفس الثاني سقيمة عقيمة . ونفس الثالث من الانفس السامية الكبيرة التي قلما تنام . فهي تفيق من هجعتها قبل صياح الديك فتفتح عينيها في ظلمة الليل الحالكة وتقاسي قبل بزوغ الفجر من العذاب والحيرة اشدهما . تبتدئ هذه النفس بالمقاومة والتمرد فتقاوم القوات التي تعترضها في طريقها وتتمرد على كل من يحاول ابقائها في الظلمات الدامسة . تسير بنور مصباحها الداخلي الى ان يخرج من الظلمات بفضل ما فيها من الشجاعة والاقدام والثبات فتتدرج من

الظلمة متمردة الى العزلة هادئة وتعاني فيها بادئ بدء نوعاً جديداً من العذاب . تعاني هناك عذاباً هو اساس كل لذاتها الروحية بل هو العذاب الذي يقاسيهِ من تعودت اعصابهُ المخدرات والمسكنات اذ ينقطع عنها دفعة واحدة . ومن العزلة تعود هذه النفس المحررة المستنيرة المتمردة الى المجتمع لتتم فيهِ ارادتها لتنير ولو زاوية صغيره فيهِ بما فاض من نورها .

شبهت الانقطاع عن الناس بالانقطاع دفعةواحدةعن المسكنات التي يعتادها المريض . فهل خطر لاحدٍ منكم ان يستشير ربهُ بواسطة الطبيعة في امر روحهِ المريضة كما يستشير الطبيب في امر جسدهِ . ايدهشكم قولي لكم اننا كلنا مرضى بوجهٍ ما . وفي هذا المجتمع كما هو اليوم بالاخص بما فيهِ من دواعي الامراض والهموم والاحزان تنسينا الحركة الدائمة آلامنا . ولا اذكر الآن اي علماء الالمان قسم الناس ثلاثه اقسام فقال : قسم منهم يولد للمستشفى وقسم للمارستان والقسم الثالث للبادية . اي ان ذلك العالم الالماني يقول ان الناس اما مرضى واما مجانين واما برابرة ومع مافي هذا القول من الغلو والضلال والكفر — فقد كفر العالم بالنفس واساء فهم نواميس الطبيعة وغالى في تقبيح الانسان — مع ما في قولهِ مماذكرت فهو لا يخلو من الحقيقة . غير انها حقيقة ناقصة متجزئة . واما الحقيقة كلها الحقيقة الشاملة الابدية هي ان الناس كلهم سواء من وجهة الفيلسوف . ومن هذه الوجهة ايضاً

يمكننا ان نقسم البشر الى قسمين اوليين · قسم الاحياء روحياً وقسم الاموات · وهاتان الطبقتان نشاهدهما في كل شعب حضرياً كان او بدوياً · ففي البداوة اناس تتنبه فيهم الروح وتنهض من سباتها كما في الحضارة · بل في البدو تبلغ الروح المنفردة الكبيرة اعلى درجة من السمو والقوة والجمال · فيخرج من البادية رجال كما يظهر في المدن رجال · وان نبغ في نويرك المخترعون وفي لندرا العلماء وفي برلين الفلاسفة وفي باريس الشعراء وفي فلورنسة المصورون والنحاتون ففي البادية ينشأ الانبياء · لكل بلاد مزية طبيعية ثابتة دائمة · وفي كل نفس بشرية شيء من سماء البلاد التي نشأت فيها ومن رضها · فيها شيء من تبر وطنها ومن ترابهِ · من خير هوائها ومن شرهِ · من فتوره ومن نشاطه · من هدوه ومن هياجهِ · فالناس اذاً كلهم سواء من وجهة الفيلسوف · الانسان واحد من بلاد الزولو الى شطوط النروج ومن ثلوج السكا الى اطراف اليابان · الناس كلهم سواء من حيث ان الامراض والجنون والتوحش كلها تنتاب كلاً منا في اوقات مختلفة وبدرجات متفاوتة · ولا يفوتنا ان نذكر مع هذه الشدائد كلها نعمة واحدة شاملة · فانا ممن لا ييأسون ولا يقطعون الرجاء مهما توغل الانسان في الجهل والجنون والتوحش لانني على يقينٍ ان النفس في كل منا تفيق ولو مرة واحدة من سباتها في سياحتها هذه العالمية · تنهض النفس من غفلتها فتجيء ولو بعملٍ واحد

شريف خالص لوجه الله . ترينا من الشهامة والمعروف والاحسان ما يزيل عن وجه الحياة شيئاً من تقطبه وعبوسته . تنهض النفس من ظلماتها . من تحت اثقالها المادية . من بين اغلالها الاجتماعية . من تحت اهوائها وشهواتها واغراضها الذميمة لتقول للناس : — انني لم ازل حيةً واعرف معنى الحب والتساهل والحنان . انني لم ازل حية واعرف معنى الحق والعدل والحرية . فيمكنني ان اتسامى الى ما فوق الشرف المتعارف بين الناس . الى ما فوق الفضيلة المصطلح عليها . الى ما فوق القوانين والشرائع . الى ما فوق قداسة الاديان وخزعبلات بدعها . اي لا بدَّ لكل امرئٍ من ساعة ولو في حياته كلها يظهر فيها بمظهر الفضيلة الصادقة الفضيلة المجردة النامية الحقيقية فيخضع للنفس الأمارة بالخير لا بالسوء لتظهر فيهِ محاسنها الجليلة . ولذلك ينبغي ان نقول ان الامراض والجنون والتوحش وحسنات النفس او يقظاتها تتناب كلاً منا عَلَى الاطلاق . تتناب كلاً منا في اوقات مختلفة كما قلت و بدرجات متفاوتة . ومن هذه الوجهة المرتفعة وجهة الفيلسوف العمومية كلنا لا شك متساوون ، اي اننا كلنا مرضى بنوع ما وكلنا نتخذ الاشغال نلهو بها . نسكن بها آلامنا . نخدر بها همومنا . نضمد بها جروح صبرنا ورجائنا . ننعش بها آمالنا . وعند ما يقف الواحد منا ليتنفس قليلاً ليتنشق نسيم السحر الجميل او بالحري ليدع عمله هنيهة و يستريح تعاوده آلامه مضاعفة (٤)

كما تعاود الاوجاع المريض عند انتهاء فعل المرفين . وما هي هذه الآلام ياسادتي ؟ اروحانية هي ام جسمانية ؟ فالطبيب يقول لنا انها جسمانية والكاهن يقول انها روحانية . والحقيقة ههنا اقرب الى جانب الكاهن منها الى جانب الطبيب . آلامنا روحية اكثر منها جسدية . يعود الرجل من اشغاله في المساء او من ملاهيه بعد نصف الليل فيستلقي عَلَى سريره متكرهاً متأففاً متذمراً . فيشكو وقد خارت قواه من الم في اعصابه او في معدته او في رأسه . ويظن ان اوجاعه موضعية . يظنها جسدية . والحقيقة عَلَى ما ارى هي خلاف ذلك . فالجسد لا يمرض من العمل واعضاؤه تزداد قوة ومرونة ونشاطاً بالممارسة والتمرين وهذا ناموس طبيعي . من اين اذاً آلامنا واوجاعنا . ما هي اسبابها اين مصدرها . ايمكن ان يكون لها مسبب غير مادي . ايمكن ان تكون آلامنا الجسدية ناتجة عن ألم اصلي اساسي جوهري روحي ؟ سؤال اجيبكم عنه حالاً بلا تردد وبالا يجاب . نعم سادتي وسيداتي ان مصدر هذه الآلام الروح فالروح منا تئن وتتأوه وصدى انينها يظهر في كل جوارحنا وفي كل حواسنا . الروح تتألم من الضغط عليها . من احتقار الانسان اياها . من اهماله شؤونها . من اهتضامه حقوقها . الروح تتأوه من قيود السلطة كما انها تتألم من قيود العبودية . فالرئيس والمرؤوس سواء من هذا القبيل . الظالم والمظلوم يشكيان من مرض واحد فالروح في كلٍّ

منهما تتألم من حيوانية الانسان الخبيثة . من اهوائهِ من ظلمه من استئثاره من بغضهِ من توحشهِ من ذله من جهله من جنونه . فاذا كانت الاشغال تسكن آلام النفس فالعزلة تضعف شوكتها . ويستأصلها العود الى الطبيعة .

ورب قائل يقول اتريد ان يكون الناس كلهم نساكاً وزهاداً وكيف يتسنى ذلك . فالجواب ان ذلك غير ممكن وغير مطلوب . فالعزلة انواع . وربما امتهنت حرمة القاموس وتوسعت قليلاً بمعناها المحدود . فقد تكون شوقاً في النفس لسبر غور النفس . لادراك كنه قواها . لكشف الحجاب عن بعض اسرارها . وهذي هي عزلة الفيلسوف . او قد تكون اعتصام النفس بعالمي الخيال والجمال فراراً من مسؤلية الحياة الاجتماعية وواجباتها الصناعية . وهذي هي عزلة الشاعر . وهي ممكنة في المدينة وبين الجموع كما في الصحراء او في الجبال لان الشاعر وان خالط الناس وحدثهم فهو دائماً فوقهم وبعيد منهم . ثم قد تكون العزلة طمعاً في النفس لفتح ممالك عالم النفس . لرفع اعلام الحقيقة والحب والحق فوق صروحها . وهذه عزلة الانبياء . وهناك انواع اخرى من العزلة لا يهمنا ذكرها لانها تغيرت عما كانت عليهِ حين قال المتنبي بيته المشهور في وصف الاسد

في وحدة الرهبان الاَّ انهُ لا يعرف التحريم والتحليلا

قد اتضح لكم ان الميل الى الوحدة والاعتزال ينشأ في النفس وعنها . وكما ان النفس تتطلب المعرفة فهي تبتغي شيئاً من العزلة تتغذى اثنائها من المعرفة . يقول الافرنج في السياحة تكملة التهذيب . اي ان المرء مهما درس وطالع وتعمق في العلوم وتغلغل فتهذيبه يظل ناقصاً اذا كان لا يعرف من العلم الا مسقط رأسه او عاصمة بلاده . فاذا كان في السياحة تتمة التهذيب ففي العزلة تتمة السياحة . لان المرء لا يكون قد ساح قط اذا كان لا يعتزل قليلاً بعد سياحته في العالم ليحاسب نفسه . ليفحص بتأنٍ وهدوء ما في مخادعها . ليغربل مافيها من الحقائق والخرافات والآراء السديدة المختلطة مع الخزعبلات . وبكلمة اخرى ليسقي النفس من ماء الفكرة الذي يتقطر ويتكرر في العزلة . ولا تظنوا ان كل من التجأ من المفكرين الى هذه الطريقة انتفع بها والذي لا ينتفع منها لا يستطيع نفع الناس .

لما كنت في نويرك قصدت يوماً مدينة كنكرد بالقرب من بسطن (وهي المدينة الصغيرة التي اعطت العالم الجديد اكبر شعرائه وفلاسفته) لازور فيها بيت الفيلسوف إمرسن والحرج الذي بنى فيه الشاعر طورو مسكنهُ او بالحري كوخه للعزلة فعاش فيه متنسكا سنتين وألف هناك كتابه النفيس في فلسفة العمران وفلسفة الانفراد . والكاتب الذى كان رفيقي ودليلي في هذه الحجة – وهو شيخ جليل في الصحافة وفي السن – كان رفيقاً وصديقاً ايضاً لاكثر شعراء كنكرد

وفلاسفتها الغابرين فسألتهُ عما اذا كان في المدينة اليوم من يعدُّ من طبقة هؤلاء الرجال العظام فقال ان الطبيعة ياصديقي لا تجود علينا بالنوابغ كل سنة فهي لا تعطي العالم الاَّ افراداً قلائل كل عصر وما كل من اعتصم بالعزلة يصل الى ذروة التفرد والذكاء فمنذ سنين جاء هذه الاصقاع شاب انكليزي واختار بيت طورو هذا مقرًّا لعزلتهِ وعاش فيهِ كما عاش طور وسنتين ولكنه يئس بعد ذلك وهجر كنكرد ومن ذلك الحين لم نسمع عنه شيئًا .

فعزلة طورو اذاً او عزلة النابغة اثمرت من الادب والشعر والفلسفة ما يعد من طبقة ما كتبه اكبر نوابغ العالم . وعزلة الثاني العقيمة اضرَّت بصاحبها لانه لم يتدارك الخطر قبل حلوله وفاتهُ ان الوحدة الطويلة الامدما عدت لمثله وان نفسه لا تطلب مثل هذا الغذاء . لذلك لااعمم في قولي ولا اغالي بمحاسن العزلة ومنافعها اذ ما كل من اعتزل تفرّد ولا كل من تفرّد افاد الانسانية . عَلَى ان العزلة تنفع الكل اذا اخذ منها كلٌ بقدر ماتطلبه نفسه او بالحري اذاعرف كل انسان كمية الجرعة التي ينبغي ان يأخذها . فمن نفس متجمدة لا تطيق العزلة اكثر من اسبوع الى نفس متوقدة لا ترضى باقل من سنة او اكثر وبينهما تتفاوت المدد كما تتفاوت العقول . هذي هي القاعدة . فمن جرَّب العزلة بحكمةٍ واعتدال انتفع لا شك منها فهو ينتفع عقلياً وجسدياً وروحيا اذا احسن استعمال الدواء .

وافضل ما في العزلة للمفكرين انها تقرب الفرد من نفسه . فالحياة الاجتماعية كما اتضح لكم مما ذكرته تبعدنا عن انفسنا حتى نجهلها جهلاً فاضحاً . لان معرفة المرء نفسه غير ممكنة في اي حال من احوال هذا المجتمع المضطرب . واذا جهل المرء نفسه بعد عنها بعداً شاسعاً . وان حاول خدمة الانسانية وهو بعيد عن نفسه اي جاهلها لا يستطيع الى ذلك سبيلاً مهما اجاد بيانه وفصاحته ومهما بالغ في آرائه واكبر الناس دعواه . لاخير في مثل هذا مهما صاح ونادى ودعى القوم وادّعى . وان صياح المصلحين ليذكرني دائماً بهدوء الفلاسفة . بل يذكرني بما جاء في التلمود من حديث دار بين اشجار الغابة واشجار البستان قالت اشجار الغابة لأشجار البستان : لماذا لا نسمع لاغصانك صوتاً ولا صدًى فاجابت اشجار البستان : لانني مشتغلة عن الولولة بانماء ثماري . ثم سألت اشجار البستان اشجار الغابة قائلةً . ولماذا نسمع لاغصانكِ هذا الدوي وهذه الجلبة فاجابت اشجار الغابة: لكي يشعر الناس بوجودي .

لذلك قلت ان كان في الحركة بركة ففي الفلوات بركات وفي الهدو نمو وسمو . فالنور ياسادتي ينبثق على العالم هادئاً ساكناً . وان شمس الحكمة لتحتجب غالباً عند هبوب العواصف والزوابع . فمن الانفس السامية المتفردة الهادئة ينبثق نور الحب ونور الحكمة ونور الحقيقة . وفي الانفس السامية المتفردة الهادئة ينابيع الجمال كلها . جمال

الفنون وجمال الروح وجمال الحياة السعيدة . والى الانفس المتفردة السامية الهادئة تعود بنا حسنات التمدن الحديث لترينا فيها اسبابها . لذلك كتبت فوق بابي -

في اصلاح الفرد اصلاح الامة
وفي تهذيب الشعب اصلاح الرؤساء والحكام

هنا وهناك وهنالك [1]

ايها السادة والسيدات ·

دعي مرة اديب للخطابة في حفلة مثل هذه فلبى الدعوة فرحاً مسروراً لانها كانت اول ماجاءه من القوم وكان الخطاب باكورة عمله فسوّد الاوراق وبيضها واستعد لخطابه استعداداً يليق بوقفته الاولى على المنبر · ولكن لما وقف امام القوم خانته الحافظة وجمحت القريحة فاعتذر قائلاً : لما دخلت هذا المنتدى لم يكن احد يعرف من خطابي شيئاً سوى الله والداعي واما الآن فبأسف اخبركم ان لا احد يعرفهُ سوى الله · فاستحسن الحاضرون النكتة وعفوه من الخطابة · ولا تظنوا رعاكم الله أن الكلام الذي اعددته انا لهذه الحفلة لم يطلع عليه قبل هذه الساعة سوى العالم بذات الصدور · كلا · فقد اضطرني اصدقائي الى مراعاة اصطلاحات البلاد وقالوا ابعث ابنك هذا الى المستشفى بلا عناد · فبعثته بعد ان دسمته من العين · وقرأت عليه المعوذتين · وهناك استامه مولانا الطبيب · وكفى بذلك تلميحاً للبيب · وعاد اليَّ بعد ايام حسبتها سنين · وعلى بدنه آثار المبضع والمشرط والسكين · فتصافحنا وكلانا يقول الحمد لله رب العالمين ·

---

(١) وهي الخطبة التي اعددتها لحفلة جمعية شمس البر السنوية في السنة الاخيرة من عهد عبد الحميد فرفضتها اللجنة خوفاً من المراقبة ·

و يجب ان اقف عند هذا الحد في التسجيع والكنايات خوفاً من ان تحسبوني اتلو عليكم شيئاً من سجع الكهان . او مقامة من مقامات بديع الزمان . وقد يتبادر لذهنكم أني اوردت القصة ليكون حظي منكم حظ ذاك الخطيب من قومه ولكنني لا اطلب كل هذا . انا ادفع الآن نصف ما عليَّ من الدين لهذه الجمعية بشرط ان تعفوني من النصف الآخر ولكنني اعدكم بدفعه مع الفائدة متى تحسنت الاحوال عَلَى انني اود لو كنت مطلق الحرية لادفع كل ما عليَّ الان . ان قوتي ياسادتي في حريتي لا في شعري . اود لو كانت وقفتي هذه الاولى امام قومي في وطني غير مقيدة بقيود التقية والاحوال . ولكن لسان الحال افصح من لسان البيان وقد تكون الكلمة المحفوظة في الصدر اشد تأثيراً في النفس من الكلمة المقولة

لقيت عَلَى شاطيء البحر وانا قادم ذات يوم الى المدينة شيئاً ذكرني بما يليق ان افتتح به هذه الكلمات القليلة التي تحوم حوماً حول موضوع يتعوذ من ذكره الناس . ذكرني ما لقيته على ساحل هذه البلاد السورية وساخبركم عما لقيته بعدئذٍ او لكم ان تنبهوني اذا فاتني ذلك . ذكرني بمدينة في البلاد الاميركية قضيت فيها خمس عشرة سنة متراوحاً بين قومي والاعجام فلم امل كل الميل الى اولئك الاميركيين ولم اهجر كل الهجر اخواني السوريين . لم يكن جفاء قومي ليقربني من الاعجام ولا اكرام الاعجام ليبعدني عن قومي . ولقد سمعت

من اصدقائي الشعراء الاميركيين من الكلام ما يضعف الشعائر الوطنية لو كان فيّ لمثل هذا الضعف استعداد . وقد قال لي احدهم مرة بعد ان قرأ في احدى الجرائد الاميركية خبر قيام النزالة السورية عليّ بسبب كتابي الاخير دع ذكر الوطن والامة والزم الشعر . الشاعر الحقيقي هو ابن العالم على الاطلاق وكل وطن صالح هو وطنه . فرنت هذه الكلمات في اذني ولا سيما الناصح شيخ في السن وفي صناعته . وهجرت اذ ذاك قومي الى حين ونفضت عن اوراقي ودفاتري غبار لغتنا هذه الشريفة واخذت انظم في اللغة الانكليزية وانقل الى الاعجام ما عثرت عليهِ من كنوز العربية . وثبت عندي اذ ذاك ان الشاعر الحقيقي يخلص الخدمة لوطنه اولاً ومن ثمّ يتدرج الى خدمة الانسانية . او يخدم الوطن والانسانية معاً اذا كان من النوابغ الحقيقيين النادرين في كل امة وبلاد . وبعد ان فكرت في امري هذا وسمعت المباحثة التي جرت بين ذاتي السوري وذاتي الاميركي حكمت للاول عَلَى الثاني ورضيت ان اكون من الطبقة الاولى في الوطنية ولو جعلني ذلك في الطبقة الوسطى من الشعر . وهكذا عدت الى الكتابة من اليمين الى الشمال ولكنني حفظت في قلبي زاوية للغة التي اكتسبتها في العالم الجديد . ولو اصيخ الى قول صديقي الشاعر الاميركي لما كنت حظيت بمشاهدتكم هذه الليلة ولكم ان تعكسوا . نعم ان ولعي بلغتي وبوطني لقوي شديد ولو سألتموني ابراد

الاسباب التي توجب هذا الولع لقلت لكم احب لغتي لانني احب نفسي واحب وطني لانني احب قومي · وقد يحماني هذا الولع والحب الى الغلو احياناً · فقد قرأت مرة ان غالينوس كان يقول اجود هواء في الدنيا هواء بلاد اليونان · وقال ابن رشد ان اجود هواء لهواء قرطبه (بلده) وقال ملتن ان الهواء النقي المنعش لا يهجر قط لندره واقول انا واظنكم كلكم تقولون معي ان هواء لبنان لهو نفس الآلهة بالذات · وكلنا لا شك مصيبون · وما غلوي انا الا جزء من غلو اولئك الفلاسفة الكرام · هذه الثمرة من تلك الشجرة · ولكن حبذا هواء لبنان و بئس المتنشقون · حبذا ماء الجبل و بئس الشاربون · لا والله هذا كثير · لا يجب ان الوم اللبنانيين ولا ان اواخذهم بما هم عليهِ من الخمول والانحطاط والاستكانة والضعة · فالاكليروس وشيوخ القرى راضون عن مثل هذا الانحطاط والخمول و يجب ان يرضى المقلقون بما يرضي شيوخ القرى والاكليروس · يجب ان نرضى ونسكت · ولكن اذا نحن سكتنا فالمهاجرون لا يسكتون · اذا نحن رضينا فالمهاجرون المقلقون لا يرضون · نعم لا بد ان تشرق علينا شمس العلم والترقي من المغرب كما تشرق علينا شمس الله من وراء جبل صنين · لا بد ان يشرق عَلَى سوريا قمر الاصلاح من وراء البحار مثلما يشرق عليها قمر السماء من وراء جبل الشيخ · لا بد من التقاء الشمسين واجتماع القمرين وقد يتأخر قمر المغرب الى الهزيع

الاخير من الليل . فلتنم الامة مطمئنة اذاً . ولكن اذكروا كلامي . لا بد من ان تعاينه ذات ليلة من ليالي تموز وهو شهر جليل الذكر عند اعظم جمهوريتين في العالم . (١)

واني لأذكر يوم وقفت امام قومي في اميركا فذكرت قومي في الوطن وها انا الآن امام نخبة من قومي في الوطن العزيز اذكر قومي في اميركا فتحلو لي الموازنة بين الشعبين اذا لم اقل بين البلادين ولكن الوقت قصير والحبل اقصر . فمتى ياترى يعود المهاجرون المنورون الى الوطن . وافطنوا انني لا اريد سوى المنورين واما ما بقي من المهاجرين فسواء عَلَى الوطن ان عادوا او لم يعودوا فهم لا ينفعون . الامة بافرادها لا بجرادها . ولكن حتى مَ هذا الانقسام وهذا التشتيت وكيف تصان وتتعزز الوطنية والمنورون من السوريين ضاربون في اربعة اقطار العالم تائهون في فيافي النزاع والجدال - فتراهم قائمين بعضهم عَلَى بعض في كل صقع وفي كل قطر وفي كل بلاد . الشعب السوري في المهاجر جاهل ولكنه ناهض عامل . والشعب السوري في الوطن منور الى درجة ولكنه متقاعس متغافل . هناك ترى السوريين في هرج ومرج وشغب ونزاع وجدال وقتال . تراهم ابداً قائمين قاعدين ضاربين شاكين . وهنا تراهم الى السكينة

(١) ليطمئن انبياء اليوم بالاً فان صدقَ نبوءتي هذه لا يطمعني في ان انافسهم وقلما يدعي النبوءة من تصدق نبوءاته

والاستكانة مخلدين · هناك تضعف الوطنية ويقوى التعصب الديني من عوامل خارجية · وهنا قد ينتج ذلك عن عوامل داخلية · هناك نهاميون وزرازرة من الاكليروس عاكفون عَلَى جمع المال عاملون عَلَى اثارة الفتن · وهنا — ولكن قد فاتني ان البحث في شؤون ذوي الرئاسة محظور في هذه الجمعية بل في هذه البلاد · هناك صحافة عربية نمت في ظل الحرية فوافقها الهواء الى حد ان صارت صحتها فيه بليّه · وهنا — ولكن الصحافه بنت الزرازرة والنهاميين فكما راعينا خاطرهم يجب ان نراعي ايضاً خاطر ابنتهم هذه العانس الفضفاضة الوهنانة · الصحافة السورية في اميركا وما ادراك ماهي · سطور تلمع من خلا لها الخناجر والحراب واعمدة تطفح بالحامض الكبريتيك · واما هنا فعندنا زنابيل من القش ملؤها قطن منفوش وبخور يحرق في مجامر التدليس حول الارائك والعروش · ولكن قد فاتني ان الخوض في امور السياسة محظور في هذه الجمعية بل في هذه البلاد · هناك قوم يقدمون عَلَى غير هداية · ويخبطون خبط العشواء في البداية · وهنا كرام يرون البقاء في الخيام · خير من الهيام في الظلام والجمود خير من التطواف خارج الحدود · هناك حرية يرافقها بطر واشر وحماقة · وهنا تهذيب ناقص يتراوح بين المراعاة واللياقة · ويسير مستسلماً مكتئباً من الخمول الى الذبول · هناك قيل لا يتبعه عمل وهنا لاقول ولا عمل · ولعمري هذا الاخير احسن من ذاك ·

هناك ضجة وقعقعة وضوضاء وهنا هدوء وقناعة ورخاء . هناك صحافي يقارع كاهناً وكاهن يصارم صحافياً وهنا ... كاد يطيش السهم ثانية او بالحري كاد يصيب كبد الحقيقة لو لم ترده هذه الجمعية الزاهرة بحجن التحظير : هنا وهناك وهنالك — وهل ينطق من في فمه ماء ؟ نعم كدت انسى ما وعدتكم به . ماذا تظنون لقيت عَلَى شاطئ البحر ؟ اسمكة من ذهب او صدفة من الندى المتجمد عَلَى الصخور او لؤلؤة صفراء او مرجانة بيضاء او بنت من بنات الامواج الزرقاء اللائي يحلم ويهيم بهنّ الشعراء او شيئاً اندر من كل نادر تحت السماء ؟ لا لا . ما لقيت شيئاً من هذا . ما لقيت عَلَى شاطئ البحر سوى الامواج ثم الامواج ثم الامواج . وهذا من مثل كلام المتصوف الذي يختلي بنفسه و يقول : قد وجدت روحي قد لقيت ذاتي ولك ان تسأل هل كانت روحه قدس الله سره ضائعة ام كان هو محجوب عن نفسه . ولكنني اعجز عن الجواب لان الله يفتح عليّ في مثل هذه الامور . ولهولاء المتصوفين ضروب من الكلام لا نلحنها نحن العوام . غير اني اهديك الى القشيري والسهروردي اذا كنت لا تخاف ان تضيع في براري شطحاتهم وسر ادب اسرارهم . واذا اغلق عليك هناك فاليك بفلاسفة الالمان الروحيين او ببراهمة الهند القائلين . واما كلامي فكلام شاعر مفتون . لا كلام متصوف مغبون . نعم مالقيت عَلَى شاطئ البحر سوى الامواج القائمة القاعدة الراغية

الزابدة الهاجمة الهائجة . سوى الامواج تلاعب الرمل فتترك عليهِ اثر حنين البحر الى ما خرج من بطنه من سواحل وسهول وجبال . لقيت هذه الامواج او بالحري لقيت فكراً صغيراً في موجة صغيرة منها جاءت تلثم قدميَّ ضاحكة وعادة الى حجرامها راغبة راضية . ففكرت في نفسي اذ ذاك وقلت . اليست هذه الامواج من ذات البحر الذي تتلاطم امواجه حول جبل طارق ؟ او لا تنقل امواج البحر الواحد من مكان الى آخر في مدار الليالي والايام فتسافر الموجة الواحدة الى سواحل سوريا كما تسافر بواخر المساجري ماريتيم . أولا تمتزج امواج البحر المتوسط باموا ج البحر الاتلنتيكي عند مجتمع البحرين . أو لا تسافر الامواج من مرفاء نويرك الى جبل طارق ومن ثم الى سواحل اسيا الصغرى ؟ اذن — وها قد وصلت الى بيت القصيدة — ما الموجة التي لثمت قدمي الاَّ رسول خير من بلاد العلماء الى بلاد الانبياء . ما هي الاموجة واحدة صغيرة من بحر النور والهدى يقذفها المغرب الى المشرق . ان هي الا موجة من امواج العقل والحجى يسوقها الله الى بلد ميت فيحييها بعد موتها . ان هي الا موجة من امواج النفس البشرية النبيلة تحملها الرياح والاعاصير الى المستضعفين المستذلين من العباد في كل بلاد . ان هي الاموجة من امواج الحب والحنان يشحذ بها الاصفياء الاحرار عزم اولئك المنقادين للهوان المستسلمين للامتهان . ان هي الا موجة من الامواج التي تغسل قدمي الهة الحرية

الرافعة نبراسها في مدينة نو يرك العظمى واني لاقول لكم الآن لا بد ان يرى المستقبل مثل هذا التمثال الجليل الجميل في كل مدينة كبرى من مدن الشرق الاقرب والاقصى . واذا لم يكن تمثالاً من نحاس اصفر أو رخام ثمين . فتمثال من نور في قلوب اوطنيين . وهذه شبه نبوة بيد اني قصير الباع في هذه الصناعة ولكن قد جاء في الحديث الشاعر جزءان من ستة واربعين جزءاً من نبي . ولعل احدكم يقول قد جاء ايضاً والشعراء يتبعهم الغاوون وهم في كل واد يهيمون . نعم قد سمعت هذا الحديث ولكنني لا اسألكم ان تتبعوني . اذكروا فقط كلامي . ودعوني واحلامي .

الحرية والتهذيب [١]

ونريدُ أن نمنَّ عَلَى الَّذِينَ اُستضعفوا في الارض
ونجعلهم أئمَّةً ونجعلهم الوَارِثِينَ (سورة القصص ٤)

ايها الوطنيون

انتم المستضعفون في الارض وانتم ان شاء الله الوارثون . ويشهد عَلَى ذلك نير ماضيكم وحرية حاضركم . يشهد عَلَى ذلك ظلام امسكم ونور يومكم . فانتم المفلحون والمحررون بفضل زعماء الاراء الحرة وبفضل الجند العثماني الذي سيبرهن لاوربا اليوم بان الشرق لم يزل منبت المعجزات . ففي الماضي كانت معجزاته دينية واليوم معجزاته سياسية . بالامس دهشت دول اوربا بالمعجزة التي انتهـا اليابان واليوم تدهشها المعجزات السياسية والاجتماعية في دولة بني عثمان . فاوربا لا تعرف حتى الآن معنى الثورة السلمية وما رأت بين شعوبها المتباينة عناصرها السياسية والمتضاربة مذاهبها الاجتماعية مثلما يسود اليوم في امتنا من التسـاهل والمساواة والاخاء [٢] . وهذا هو النور الذي ينشق من الظلام . هذه وردة الوئام التي تنبت عَلَى ضريح الشقاق والخصام . هذي هي الحرية التي تشيد الامة هيكلها

(١) القيت في حفلة من حفلات الدستور

(٢) واذا ماراني القانطون من الحال الحاضرة اردهم الى — المستقبل

في روضة الالفة والسلام ·

جاء في بعض الاسفار أن الاطباء الاقدمين اكتشفوا العقاقير القتالة قبل العقاقير الشافية · وكذلك يصح ان يقال في حكومات العالم باسرها فالقتالة منها وجدت قبل الشافية · ولا فرق ان كانت الحكومة أبوية كما في الصين او اميرية كما في الهند او استبدادية كدول اشور ومادي وفارس او كحكومة الروس بالامس فكلها من الادوية القتالة التي يسقيها الحاكم المحكوم ليقتل فيهِ الروح ويتمكن من ارهاب الجسد وتسخيره واستعباده · فالظالم مجرم ايًا كان · والحكومة الاستبدادية ذاهبة الى البوار في كل مكان · ولنا في حكومتنا عَلَى هذا اشد واقطع برهان · فبالامس كانت الامة العثمانية تتقلب عَلَى فراش الموت واليوم تمرح فرحة تحت سماء الحياة وفي ظل الحرية والدستور · لنهنئ انفسنا اذاً لاننا عشنا والحمد لله لنرى الظلم مدرجا بكفنه الدائم · والاستبداد هاويًا الى الجحيم ·

بالامس كان خطيبكم يتسنم عَلَى المنبر فيجمجم الكلام ويوريه · ويلغز ويرمز · ويعقد مقاله ويلويه · لتخفى عَلَى جواسيس الحكومة معانيه · واليوم نراه كما لو كان في باريس او في نويرك يصدع بالحق ويجاهر مصرحاً بارائه ومباديه · والفضل في ذلك عائد الى زعماء النهضة الاصلاحية النظريين · والى زعمائها العمليين · والى الرئيس الاكبر الذي انتهت اليهِ مطالب هؤلاء العثمانيين · بل الفضل عائد

الى كل من حرك قلما لبث روح الحرية والدستور . والى جلالة السلطان الذي كلل النهضة بالفوز فصان الدولة من الخطوب والمحن . وخلص الامة من الهزاهز والفتن . فالامة التي كانت امس اسيرة ظلمه اصبحت اليوم اسيرة فضله . وقد يكون الأسر اكبر من الاسير ولكن العائق ياسادتي اكبر من الاثنين فالسلام اليوم عَلَى عبد الحميد . والسلام على عهده الجديد . سلام عَلَى عصر الحرية المجيد . (١)

***

وجدير بنا بعد هذا التشبيب الذي لا بد منه للخطيب البحث في ماهية الحرية واصولها باختصار يوجبه الوقت والمقام . فالحرية اليوم كلمة تملأ افواه القوم . الحرية جمال يزدهي في اعمدة الصحافة وأندية الامة . الحرية مجد انسى التجار اشغالهم . والاتقياء فروضهم وانفالهم . الحرية آلهة هجرت الامة معابدها لتعبدها . كل ذلك جائز . كل ذلك حسن ان لم يكن مفيداً . ولكنني في كل ما قرأته في الجرائد لمن كتبوا وخطبوا ما اطلعت عَلَى كلام في الموضوع حري بالنظر والاعتبار . وقد يكون فاتني في عزلتي كثير مما كتب وفات الشعب في ابتهاجه وهوسه اكثر من ذلك . لان المعقولات في مثل

---

(١) وذنبي صغير بالنسبة الى ذنوب الشعراء في هذا المقام . ثلاث تسليمات يغفرها الله ولكن الثلاث مائة قصيدة ... سبحان من لا تخدعه الحوادث سبحان العالم بذات الصدور و بخفايا الدستور

هذه الايام قلما تستلفت انظار الناس والبحث الفلسفي في الموضوع لا يروق الشعب ولا يلائم الزينة في المدينة . عَلَى انني دعيت الى الخطابة في هذه الحفلة الشائقة فينبغي لي ان اقول الكلمة التي يوجبها العلم ويقتضيها الضمير و يؤيدها الاختبار . ولكم ان تنبذوها بعد ان تسمعوها او تزرعوها فتستثمروها

كل انقلاب في الحكومات لا يسبقه انقلاب في الافكار والآراء لا يرجى منه كبير فائدة . فالحرية السياسية جميلة واما وحدها ثمنافعها قليلة ومن الواجب ان يتحرر عقل الامة وضميرها ليتعزز شأنها وشأن حكومتها . واعلموا ان ثورة روحية في بلاد الافرنج هي اصل هذه الحرية السياسية التي نتمتع بها اليوم فرحين مبتهجين . يقال ان للجند يداً في هذه النهضة الاصلاحية ولا ريب عندي في ذلك . ولكن الجند في الحكومات الاستبدادية اذا امتهنت حقوقه وحُبس زمناً معاشه يقيم السيف في امره حجة قاطعة . وكثيراً ما حدث من مثل هذا الحادث في الحكومات الاستبدادية في سالف الزمان . واما الآن فنرى ان الجند العثماني ينصر النهضة الفكرية الاصلاحية ويثق تمام الثقة بمواعيد زعمائها . والفضل في تغلب الفكر عَلَى القوة والعقل عَلَى السيف حتى في الجند عائد الى شيء جميل في مدنيتنا ينتشر في العالم انتشاراً سريعاً . وهذا الشيء الجميل يتجسد احياناً في دعاة الاصلاح الصادقين وغالباً في الفلاسفة والشعراء الحقيقيين . فالشورى

عَلَى وجهها البسيط قديمة في العالم . وطريقها من المشرق الى المغرب يكاد يختفي في ظلمة التاريخ واما من المغرب الى المشرق فمسلكها واضح وآثارها جلية . فمن المصلحين العثمانيين الى المصلحين الروسيين مرحلة قصيرة . وتكاد اسباب مجلس المبعوثين تتصل باسباب مجلس الدوما . وفي الدوما تتجلى لنا ارواح باكونين وتورغانيف وتولتسوي وغوركي . وهؤلاء منبثقون من ڤولتير وروسو وديدارو وهوغو . وروسو وفولتير وهوغو . مديونون لكالفين وجون نُكس ولوثيروس بكثير من الحرية التي تنبعث اشعتها من اقوالهم . فالثورة الروسية اذاً هي ابنة الثورة الافرنسية وكلكم عَلَى ما اظن تعلمون ذلك . والثورة الافرنسية وهذا ما لا اظنكم تعلمون هي احدى نتائج الثورة الروحية التي اطلقت ضمير الانسان من قيود الخرافة السوداء . وعقله من قيود السلطة الصماء . وقلبه من قيود الطاعة العمياء . فتدبروا هذا واعلموا ان الحرية الروحية هي رسول الحرية السياسية واذا جاءت هذه قبل تلك يعد مجيئها نقصاً لا بد ان تحاسبنا عليه الايام .[1]

* * *

ورب قائل يقول وما معنى الحرية الروحية . فقبل ان اجيب على هذا السؤال اوجه اليكم سؤالاً آخر اتظنون ان كل من عاش في ظل الدستور صار حراً . اتظنون ان كل من تمتع بحقوقه المدنية

(١) وما كنت اظن انها تسرع بالحساب هذا الاسراع .

اصبح حراً . اتحسبون الفقراء والعمال في الجمهوريات من الاحرار القوم الحرية بهذا الوهم الذي يدعونه في الحكومات الدستورية حق الاقتراع . اتعجبون اذا قلت لكم ان نصف سكان الولايات المتحدة لا يزالون مكبلين بسلاسل العبودية . فما الفائدة للخادم من الحرية التي تتوقف على ارادة سيده الخبيثة الجائرة . ماالفائدة من الحرية السياسية التي يكفلها له القانون اذا كان القانون في قبضة الاغنياء . افمثل هذا يعد حراً وهو لا يستطيع ان يبدي رأياً مخالفاً رأي سيده . ايعد حراً من لا يملك نفسه من لا رأي ولا روح له . ايحسب حراً من كان وجدانه مقيداً بوجدان من يتوقف عليهِ معاشه . فالتسكسك في الولايات المتحدة اي بذل ماء الوجه امام ارباب المال هو مشتق من التسكسك في الشرق اي تعفير الوجه امام ارباب السلطة والسيادة . والمتسكسك ياسادتي وان ملأ ماضغيه فخراً بالحرية والاستقلال والمساواة فما هو الا عبد تكلة . لا رأي ولا نفس له .

الحرية الروحية اذاً هي ان يكون الفرد مالكاً نفسه اي مطلقاً من القيود التي تضغط على روحه وعقله ان كانت هذه القيود عائلية او اجتماعية او دينية او سياسية . الحرية الروحية هي ان تكون روح كل امرئ بيده وتصرفه لا محجوزة ولا موقوفة ولا مبيعة ولا مرهونة . وطالب هذه الحرية يتدرج فيها من بيته الى دائرة اشغاله ومنها الى معبده وحكومته . فينعتق اولاً من الواجب الكاذب الذي يفسد

الحب في الاسرة ومن المصادقة التي تدعى لطفاً وصداقة ومن الخرافات التي تشوه وجه الدين . ومن التقاليد التي تفسد الحكومة . فواضح اذاً ان الحرية السياسية هي فرع من الحرية الجوهرية الاصلية الروحية او هي نتيجة من نتائجها . وهذه الحرية يحدها و يقيدها الناموس من جهة والتهذيب من الجهة الاخرى فبدون الناموس يستبد الحاكم و يوغل في الطغيان . و بدون التهذيب يستبد الشعب و يمعن في العصيان . بدون الناموس يسود الظلم في الحكومة . و بدون التهذيب تسود الفوضى في الامة . فالناموس القويم الحي والتهذيب القويم الحي انما هما حصنا الحرية المنيعان . واما الناموس فتمثله الحكومة في الدستور و يمثله الدين في الايمان وتمثله الانسانية في الضمير . فالضمير الحي والايمان الحي والدستور الحي انما هي الدعائم الثلاث التي تقوم عليها الحرية الحقيقية المعنوية الجوهرية . الحرية الثالوثية التي هي واحدة اي الحرية الروحية والحرية الادبية والحرية المدنية . وان كان المرء حراً سياسياً ومقيداً دينياً وادبياً فحريته ناقصة . والحرية الجوهرية الروحية الكاملة لا تسود و تنتشر في الامم الا بواسطة العلم الصحيح والتهذيب الصحيح فعلينا اذاً ان ننادي باصلاح المدارس بعد ان فتح لنا باب اصلاح الحكومة . فان اصلحنا الحكومة وظل التعليم تحت سيطرة من يقتلون في الناشئة العثمانية عزة النفس وروح الاستقلال وعاطفة حب الوطن و يعطونهم بدلاً من ذلك قليلاً من العلم الذي

قلما يفيد نعود الى الحال التي كنا فيها وتمسي حريتنا كجواد الامبراطور الروماني كاليغولا[1] ودستورنا كطيلسان ابن حرب او كجبة دبوجن[2] .

علينا اذاً ان نبث الروح الجديدة في مدارسنا . علينا ان نشيد لحريتنا حصناً من التهذيب كما شيدت لها الحكومة حصناً من الدستور . علينا بالجهاد والثبات . بالتيقظ والتحذر . تحذروا ايها العثمانيون و تنبهوا

تحذروا من انقلاب الاحوال وتقلب الرجال فان للوزارة في الدولة مقاصد تخفى عَلَى ممثلي الامة وعمال الحكومة .

تحذروا من رجعات الظلم . تنبهوا الى عودات الاستبداد فان في السياسة من الاحابيل والاشراك مالا يعرفها الاَّ من اشرف في السياسة مزاراً عَلَى الهلاك . احذروا من كان في عهد الظلم حراً فاصبح اليوم مقيداً . فبدل الجاسوسية القديمة قد يتألف اليوم من حزب التقهقر جاسوسية جديدة .

احذروا حيل المشعوذين والمخرقين كحذركم دسائس المعزولين والساقطين . ولا تغضوا الطرف عنهم قائلين ان لسمهم دياقاً بالدستور . لا تأمنوا السم باصفهان . ان كان دياقه بخراسان .

احذروا الخونة والمرائين الذين ينادون معكم اليوم « فلتحي الحرية » وهم في قلوبهم يلعنونها .

---

(١) حصان قيل ان الامبراطور منحه لقباً و كان يعيده

(٢) طيلسان ابن حرب مثل جبة دبوجين كان كثير الفتوق والرقع

احذروا من المأمورين من يبتهج ويفرح معكم بالدستور وكان الظلم من طبعه والاستبداد وراثة فيه . فان العوسج لا ينبت تيناً . والصخر لا يستحيل ماءً معيناً .

احذروا من اتخذ السياسة حرفة والسيادة باباً للارتزاق فان المعدة والاهواء والمطامع تنسيهم الشعب والدستور والحرية .

احذروا المصلحين الكاذبين الذين يتزلفون من الشعب اليوم كما كانوا امس يتزلفون من السلطان ووزرائه فان طالب الوظيفة واحد ان احرق بخوره امام الباشاوات او امام الجماعات .

تحذروا من جهل الشعب العاتي كما كنتم تحذرون البارح من ظلم الحكومة العاتية . فالتاريخ شاهد عَلَى ما ارتكبه الشعب باسم الحرية من المظالم والفظائع . احذروا في انتخاب المبعوثين نفوذ رجال الدين فالعضو الذي ينتخبونه يؤثر في المابين مصلحتهم عَلَى مصلحة الامة .

احذروا ايضاً نفوذ الاغنياء الذين لا يهمهم من الحرية والدستور سوى ارتفاع الاسعار في البورص وهبوطها . اذا شبع الزنجي بال على التمر

احذروا من ينتمي اليكم اليوم ممن يأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن الحق . اولئك الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقون منها في سبيل الامة والوطن والخير العام .

وبكلمة اعم احذروا الحرية التي لا ينيرها التهذيب والتهذيب الذي لا تنيره الحرية .

الثورة الادبية (١)

سادتي وسيداتي

قبل ان ابداء بالكلام اطمئنكم الاَّ اكلمكم هذه الليلة بالرموز والالغاز . بل في نيتي ان اجرد الاشياء من زيناتها واسميها باسمائها . فان ذكرت العقاب مثلاً لا تظنوني اشير الى شيء خفي تحته او فوقه او ورائه او فيه بل اريد العقاب بعينه . وان قلت هبت الشرقية . فلا تقولوا ما اجمل هذه الصور الخيالية . فاني اقصد النار الحقيقية تلك التي لو مرَّ العُقاب فوقها لوقع فيها مشوياً . قد حان لنا ان ندعو المعول معولاً عَلَى حد قول اخواننا الاميركيين وبناءً عَلَى ذلك سنبقى عَلَى الارض هذه الليلة بعيدون عن القمر والجوزاء وعن تبرقش الشعراء

لما وقفت امامكم في السنة الماضية شعرت بوجودي معكم في غور الحياة بل في اردن الموت . واما الآن فاراني والحمد لله اخاطبكم وانتم في سهول الصحة تستنشقون هواء الحرية . فمن اردن الموت الى سهول الحياة وحقول الحرية — انها لخطوة خطيرة . ولكنها صغيرة . هي خطوة الى الامام ولكنها لا تغني عن رحلتنا الطويلة شيئاً من الاقدام

(١) القيت في حفلة جمعية تهذيب الشبيبة السورية في المدرسة الكلية ببيروت

فان حوّلنا وجهنا الى مشرق الشمس نرى الجبال قائمة في طريقنا لا لتعترضنا في سيرنا بل لتشحذ منّا الهمة وتوقظ فينا النشاط .

وكلما صعّدنا في جبل نشاهد فوقنا روح ما تجسد من الامال وهي تدعونا الى ما فوقها من الجبال . وان الامة التي تستيقظ من سباتها وتنفض عنها غبار فتور الاجيال ينبغي لها ان تواصل السير بالسرى والاّ تقهقرت فسقطت ثانية في الوهدة التي قامت منها . ولا يخفى عليكم ان الطريق وعرة . والزاد قليل . والنفس مضنية من إقامتها طويلاً في الغور . والاحمال ثقيلة . والادلاء كثيرون . ولكننا سنتوفق ان شاء الله في مسيرنا عَلَى رغم هذه الصعوبات والعقبات اذا اتخذنا شمس العلم دليلنا . والاداب والفنون زادنا .

ان الشمس المشرقة علينا من المغرب اليوم هي والحق يقال شمسنا . هي شمس ادابنا . هي شمس اديانـنـا . هي شمس مجدنا الغابر . فـان نظرتم الى خارطة العـالم تروا أن من البلاد ثلاثاً آخذة منه مركز القلب . وهذه البلاد هي سوريا وفلسطين وجزيرة العرب ومـا بين النهرين . هذه البلاد وطننا . هذه البلاد قلب العالم . وفي هـذا القلب ظهرت الانبياء وفيه نشأت الاديان . ومن هذا القلب اشرقت عَلَى اوروبا في الاجيال الوسطى شمس العلم والفلسفة والادب . فانارت ظلمات الاوروبيين وخرجت بهم من مهـامه الجهل والتوحش الى واحات الرقي والعمران . اجل ان وطننا لقلب العالم ولكن اوروبا

رأسه . وان كان القلب منشأ الخيال والنبوة فالرأس منشأ العلوم والفنون على ان النور المنبثق من الرأس فقط هو كالنور الاصطناعي الذي يضيئون به المراسح في اوروبا . هو نور بارد جامد خاسئ وان لم يشترك مع نور القلب وحرارته فلا خير فيه للانسان مهما عظمت نتائجه في دوائر العمران والفنون ان لم يكن الضمير اساسها والاخلاص لبها ونفع البشر غايتها الاولى هي أفيون لا فنون . فانها تخدر الحواس وتذهب بشيء من الهموم ولكنها تقتل النفس وتفسد الحياة .

ان سكان هذه البلاد التي هي قلب العالم لشبيهون بشجرة ذكرها النبي شجرة مباركة لا غربية ولا شرقية . نحن اليوم واقفون بين مدنيتين متناقضتين معاديتين الواحدة منهما الاخرى . مدنية جديدة ومدنية قديمة . مدنية اوروبية ترفع اعلامها في البلاد كلها . ومدنية شرقية لم يزل لها المقام الرفيع بين فئة راقية من نخبة الادباء والفلاسفة في اوروبا . فان كان هؤلاء الاوروبيون يجدون في مدنيتنا ما لا يجب تركه ما لا يجوز اضمحلاله فكم بالحري نحن . ولي كلام طويل في هاتين المدنيتين اقول الوجيز منه الآن لست بجاهل ما في مدنية اليوم لمن كثر ماله فقط من دواعي الراحة في المعيشة البيتية المادّية والسهولة والسفر والمواصلات . ولا اظنكم تجهلون ما في التهادي والتكالب في سبيل هذه الاشياء من الشقاء ايضاً والبلاء . فان المدنية التي يدعى التكالب فيها نشاطاً والخداع براعة والقوة حقاً هي عندي شر المدنيات . وهذه مدنية

اوروبا اليوم مدنية كهرباء هي وبخار . مدنية تجارة وكسب واستغرار مدنية حروب وفتوحات واستعمار . ليس فيها للضمير والذمة اثر من الاثار . مدنية جذورها حب الذات والاستئثار . وثمارها اليأس والانتحار لا تقولوا بالغت فان كلامي من الاختبار . لا من المجلات والاسفار . واما مدنية الشرق فلست بناكر انها مدنية فتور وجمود واستسلام . مدنية اصولها القضاء والقدر وابها محض اوهام . ولكن فيها من جميل العادات والتقاليد من جميل العواطف والشعور من شهامة النفس وكرم الاخلاق من الاعتدال في العيش والبساطة ما تفتقر اليه مدنية اوروبا . وهذه الخلال الشريفة تبعث الحرارة من الحقيقة الباردة القاسية فتمسي الحياة خفيفة الاحمال مرضية الآمال .

ناميك عن انه لم يزل في هذه المدنية القديمة شيء من الضمير الحي والتجرد في الولاء مما يزيد النفس الشرقية جمالاً . والضمير الحي ايها السادة هو ملح العلوم والفنون والاداب ومن هذه كلها تتغذى المدنية الحقة .

نحن اليوم واقفون بين هاتين المدنيتين — بين مدنية غازية منتصرة واخرى مدبرة فعلينا ان لا نخضع على الاطلاق لهذا الفاتح القوي . وان تمسك بما في مدنيتنا من الخير الروحي . ولا ينجينا من استبداد هذه المدنية الفاتحة القاهرة ويحفظ لنا حسنات تلك المدبره سوى الاداب . ولا اريد بالاداب الكتب فقط بل اريد منها اداب النفس

اولاً والاخلاق . ان الدين وهو اب مدنية الشرق يرفض بتاتاً مدنية الغرب والعلم المادي وهو اله مدنية الغرب يرفض بتاتاً مدنية الشرق . فالدين والعلم في هذا الموقف متغرضان كل لقومه ولا ينفعنا الواحد منهما دون الاخر . واني لا اجد في كل قوى الفكر والنفس وثمارها اصلح وانجع من الاداب تجمع بين الاثنين فينشأ عن ذلك مدنية جديدة قوامها الصنائع والفنون وشعارها الاخاء العام . واعلموا ان الفنون السامية الجميلة هي التي تتغذى من العلم والدين معاً . والامة التي تجعل مثل هذه الفنون اساس حياتها الاجتماعية تكون ولا غرو مجد المستقبل وأم الامم . عَلَى شطوط البحرين وفي اودية الرافدين احب ان اشاهد مثل هذه المدنية الجامعة بين محاسن المدنيتين . أحب أن ارى في قلب العالم جمال روح العالم وكمالها . احب ان ارى في بلاد الشام و بلاد العرب ثمار الانبياء وثمار العلماء عَلَى شجرة واحدة . احب ان تزرع بساتين هذه الارض المقدسة من تلك الشجرة المباركة . شجرة لا غربية ولا شرقية . واحب ان ارى الادباء والشعراء بعيدين عن السياسة واوحالها منصرفين الى حراثة هذه البساتين الجميلة .

ايها السادة — لا تظنوا ان الانقلاب السياسي يجدي نفعاً ان لم يتبعه انقلاب ادبي . لا تظنوا ان في الحكومة الدستورية دواء شافياً لكل امراضنا . لا تظنوا ان الدستور وحده يخلص الامة من الاخطار المحدقة بها النامية في قلبها وان الصحافة الحرة تقف دائماً من اجل الامة

في وجه المشعوذين والمضللين والمفسدين . وهل الدستور والصحافة الحرة رقيتان من رقيات السحرة حتى اذا قلنا مثلاً شولم صحافة ! صرنا شعباً حرا . شولم دستور ! صرنا امة راقية ؟ لا يا اخواني لا . فان طلبتم الحرية اطلبوا المعنوي منها قبل الحرفي . الجوهري قبل السياسي .

اطلبوا الحرية الروحية التي تحصنها الاداب قبل الحرية المدنية التي تتاجر بها الاحزاب . وان خفي عليكم الفرق بين الاثنين اذكروا أن حرية الجسد لا تجدي المرء نفعاً اذا كانت النفس مقيدة . وان حرية الفكر والقول لا تغني فتيلا اذا ظلت الروح اسيرة ما اعتاده الجسد من الراحة والترف والرخاء او الذلة وتعفير الوجه والعياء .

اخواني — ان الفرق بين الحرية الادبية الروحية والحرية المدنية المادية لهو كالفرق بين حرية السياسي في مراوغاته وحرية البدوي في خيمته او الرجل الصالح الجريء في معاملاته . اجل ان الحرية الحقيقية هي التي تنشأ في النفس لا التي يمنحها الملك الرعية . فان هذه تزعزعها الاهواء ويتأجر بها الزعماء وتقتلها رجعات التقهقر الشعواء وتلك كنز من كنوز النفس الخالدة . والذين لا يناضلون عن مثل هذه الحرية ولا يفادون من اجلها بشيء مما ألفوه من رخاء العيش او بشيء مما نالوه من المال او الرفعة والوجاهة فما ضرهم لو دعوا كلابهم احرارا وذكروا عزت في صلواتهم مرارا . الذين يتنازلون عن حريتهم ويتاجرون بها كما لو كانت ثوباً من الخام او سهماً من اسهم

البورص فان هم الاقبور متحركة اذ مـا الجسد الا كالقبر لنفس باعت حريتها . ولكنني خرجت عن الموضوع .

قلت أن الاداب التي تجمع بين العلم والدين تكون قوام المدنية الجديدة التي يقرن فيهـا بين مدنية المغرب المادية ومدنيـة المشرق الروحية . ولكن ادابنا لم تزل تحت سيطرة المتدينين والمتنطعين وانفسنا لم تزل في ربقة رجال الدين . وان لم نتجرد من هذا الاستبداد الديني او بالحري السفسطي كما تجردنا من الاستبداد السياسي تظل ادابنا مبتذلة جامدة خاسئة ونعود بعد حين الى ما كنا فيه من الفتور والخمول والانحطاط .

خذوني بحلمكم فاقص عليكم بوجيز الكلام قصة الكهان ، ونشوء العبادة في قلب الانسان . لنعد الى الاكواخ اذا فنحكي هنـاك شيئـاً من حكاية اجدادنا الاولين . من المعقولات التي لا تنفيها الالهيات او الالهيات التي لا تنفيها المعقولات .

ان اول دعوة لباها الانسان دعوة بطنه وشهواته . وماذا يهمنا وقد علمنا هذا فيما اذا كان يمشي على الاربع في تلك الايام او عَلَى الاثنين فان في العالم حتى اليوم كثيراً من الحيوانات التي لا تمشي على الاربع . هذا الحيوان الناطق اذاً لم يكن يفهم في بادئ امره الا حديث معدته وحديث كبده . فكان لا يحسن غير الصيد والحرب والاكل والسفاح وبعد فترة من الزمن مقدارها الفان قرناً او الفان عاماً - لا فرق عندي

قريباً لا نحرم فضلها والاءها .

سادتي . ان الحرية مهما قيل فيها هي ضالة الانسان المنشودة . هي غايته القصوى في الحياة . هي قوام الانفس والعقول . وغذاء الفنون والعلوم . واساس كل مظاهر الرقي والعمران . واود لو دعيت المدينة العظمى التي هي موضوعي الليلة مدينة الحرية واطلقت عَلَى شوارعها اسماء رسل الحرية وابطالها في كل زمان ومكان

من الحقائق التي لا ريب فيها هو ان الانسان مهما ارتقى في في سلم الحياة يظل في مكان يرى منه من تقدمه الى العلاء ومهما انحط المرء وتقهقر لا يصل الى القعر الذي لا يكشف عَلَى احد دونهُ .

فالسلم والهاوية لا نهاية لهما في الحياة . لان الدرجة الاولى منهما في المهد والدرجة الاخيرة في القبر . اينما كان المرء اذاً يرى كثيرين من الناس فوقه وكثيرين تحته وكلما ارتقى درجة في معارج الفوز والفلاح يسمع اصواتاً بعيدة تدعوه الى ما هو فوقها . وهذه من حقائق الحياة التي فيها لجميع الناس كثير من التنشيط والتعزية علينا اذاً ان لا نكون عبيداً لمن هم فوقنا والا نستعبد من هم دوننا . علينا الا نتصاغر امام الكبار والا نتكابر امام الصغار .

وكما في الناس كذلك في المدن . فلا يحق للوندرا مثلاً ان تصعر خدها للقاهرة ولا القاهرة ان تشمخ انفها عَلَى بيروت لان حسنات المدينة العظمى قد تكثر في هذه وتقل في تلك . قد (٨)

تكبر في المدينة الصغيرة وتصغر في الكبيرة . والمدينة هذه التي صورّها العقل بريشة الخيال ما هي من مدن هذا الزمان ولا من مدن الماضي . ليس في نيتي ان اكلمكم لا عن نينوى او بابل ولا عن نو يرك او باريس فان باريس من امهات المدن العظيمات ولكنها لا تستحق في نظري صيغة التفضيل لان هناك مدينة اعظم منها مجداً واسمى منها شأناً وابعد منها جمالاً وارقى منها فضلاً وعلماً

ومن يتجاسر ان يتكهن في هذه الايام . من يدري ما في المستقبل لشعوب آسيا الصغرى . فقد تزهو المدينة العظمى فوق اطلال بابل . قد يشيدها الزمان على ضريح نينوى . قد ترتفع صروحها واعلامها وابراجها وقبابها تحت هذه السماء الجميلة على هذه الشطوط التاريخية المقدسة امام هذه الامواج التي شاهدت جنازة مجد آسيا وستشاهد ان شاء الله موكب بعثه

وبأي تمتاز المدينة العظمى عن سائر المدن ؟

ابراسيها البحرية . ابحطات السكك الحديدية . ابركباتها الكهربائية . اباسلاكها البرقية . ابانبائها اللاسلكية . ابقصورها الشاهقة . ابصروحها الفخيمة . بانفاقها وجسورها وملاهيها ؟ بأي تفاخر المدينة العظمى سائر المدن ؟ ابشوارعها الواسعة النظيفة . ابساحاتها الكبيرة الجميلة . ابخازنها الحاوية ما ندر وعز من مصنوعات الطبيعة والانسان . ابمدارسها العمومية . ابمستشفياتها المجانية .

بمعاهدها العلمية · بمتاحفها الادبية والتاريخية · بمصارفها وبورصاتها واغنيائها · بكثرة سكانها · بتعدد معابدها · لا ياسادتي ·

المدينة العظمى تمتاز عن سائر المدن بنوابغها · بشعرائها وعلمائها وارباب الفنون والصنائع فيها · المدينة العظمى هي التي يمكنها ان تفاخر سائر المدن لا بكثرة سكانها بل بكثرة الاصحاء فيها · اذ ما هو الخير في مدينة تسعون في المائة من ابنائها مرضى ؟ المدينة العظمى اذاً هي التي يخلو هواؤها من جراثيم الامراض المعدية وتشرق شمسها عَلَى عقول سليمة في اجسام سليمة · المدينة العظمى هي التي تكرم ابطالها ونوابغها لا باقامة التماثيل ونصب الانصاب فقط بل بالاقتداء بهم وبالعمل بتعاليمهم · هي المدينة التي يقرن فيها بين البساطة والجمال في امنيتها وفي ازيائها وفي فنونها · وبين الرحمة والعدل في احكام قضاتها · وبين العلم والدين في تعاليم علمائها · هي التي يحترم المرء فيها جسده وروحه ويعتني عَلَى السواء في نظافة الاثنين · هي التي ينبذ رجالها ونساؤها الشرائع التي يسنها الخائنون لتعزيز شؤون افراد من الناس ولا فرق ان كان الافراد من الاغنياء والامراء او السلاطين · هي التي لا يوجد فيها ارقاء ولا تباح فيها النخاسة · هي التي ينهض فيها الشعب نهضة واحدة على ظلم الحكام وفساد المسيطرين · هي التي يكون شعار كل امرىء فيها

لا تسقني كأس الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

المدينة العظمى هي التي لا يتداخل في شؤونها سلطة اجنبية . هي التي يكون كل امرىء فيها سلطاناً بنفسه بل تمثالاً حياً للحرية والاخاء . هي التي يعتبر الحكام فيها كخدّام يخدمون بالاجرة . هي التي يتعلم الاولاد الاستقلال وعزة النفس في مدارسها قبل سائر العلوم . هي التي تطلق فيها حرية القول والعمل ويكثر فيها التنقيب والبحث وتثمر فيها الفنون وتتعزز فيها الاداب . هي التي تكون الصداقة فيها امراً مقدساً والاخلاص محترماً كسر من الاسرار الالهية . هي التي لا تكره الامرأة فيها على الاقامة مع رجل لا تحبهُ ولا الرجل مع امرأة لا يحبها . هي التي يكون الابوان فيها صحيحي الجسم والعقل قويين نشيطين مدركين فيوجدا نسلاً قوياً مدركاً نشيطاً — ان لم تصلح صحة هذا الجيل لا رجاء لنا في المستقبل . المدينة العظمى هي التي تكثر فيها الامهات لحزيمات العزومات المدركات ما سما من مقاصد الحياة فلا يعلمن اولادهنّ الخرافة والكذب والمراوغة ولا يعودنهم الطاعة العمياء والجبانة والخوف — الشرق يحتاج الى الام التي تعلم اولادها الاعتماد على النفس فوق كل شيء - المدينة العظمى هي التي تسير النساء في اسواقها مكشوفات القناع ويحضرنَ الاحتفالات العمومية كالرجال ويشاركنَ في البحث والارشاد كالرجال . هي المدينة التي يستغني فيها اهل الادب والفنون عن اهل المال . بل هي التي يتأسس فيها دائرة اوقاف لا لخدمة المعابد

واعاشة رجال الدين بل لخدمة العلوم والفنون. لخدمة النوابغ والعلماء

سادتي — عبثاً تسن الحكومات الحرة شرائع حرة ان لم تطلق انفس العلماء وارباب الفنون من قيود المصلحة ومن هموم الارتزاق .

قيل لبعض العرب ومن سيدكم ؟ فقالوا فلان فقيل بمَ ؟ فقالوا احتجنا الى علمه واستغنى عن دنيانا . فمثله تكون العلماء والامراء وبمثله ان شاء الله ستفاخر المدينة العظمى سائر مدن العالم . وقال اعرابي اخر — احب ان اتمثل بابناء هذه اللغة لتتأكدوا ان مثل هذه المدينة العظيمة لا يستحيل وجودها في بلادنا . قال سيد من العرب لقومه — اعلموا انني حاسدت عليكم حتى صرت عبداً لكم اغدق عَلَى سائلكم واصفح عن جاهلكم واحوط حريمكم وادفع غريمكم فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي ومن فعل فوق فعلي فهو فوقي ومن فعل دون فعلي فهو دوني . فهل ياترى يوجد بين المتمدنين اليوم من تجتمع فيهِ هذه الخلال الشريفة كلها . افلا يحق لمدينة المستقبل ان تفاخر سائر المدن بمثل هذا الامير .

وبين رجال العرب من كان اعظم منه . دخل ابن العباس على علي بن ابي طالب خارج الكوفة وهو يقطب نعله فقال له ما قيمة هذه النعل فقال ابن العباس لا قيمة لها فقال علي لهي احب اليَّ من امرتكم الا ان اقيم حقاً او ادفع باطلا . فالمدينة العظمى هي التي يكثر فيها

مثل هؤلاء الرجال العظام الصالحين . هي التي يتعوّد كل امرئ فيها محاسبة نفسه فاذا كان ممن لهم شيء من الشهرة او المجد او القوة او النفوذ او السلطة او المال يسأل نفسه كل يوم وما قيمة هذه الاشياء كلها الا ان اقيم حقاً او ادفع باطلاً . ما الفائدة من هذه السيادة او من هذه الشهرة او من هذه الاموال اذا كانت لا تساعدني عَلَى نصرة الحقيقة واقامة الحق ودفع الاباطيل والاضاليل . ما الفائدة منها اذا كانت لا تبعدني في الاقل عن هذه الظلمات وسكانها عن اسيادها وعبيدها . وقد قيل شر من الجهل نصرة الجهال واسوأ من الضلالة الاحتجاج للضلال

سادتي — ان المدينة العظمى هي التي تنتصر فيها الحقيقة قولاً وفعلاً . هي التي يروج فيها الصدق كما هو الكذب رائج في العالم اليوم . هي التي يعيش فيها الادباء والعلماء لا للشهرة والمجد ولا للكسب والمال فقط بل لخدمة الحقيقة فكراً وقولاً وفعلاً . ان فروسية اللسان لغير فروسية الجنان وما كل من هز لسانه فخراً ومباهاة يستل حسامه في الغارات . فالنفس الراقية التي تعيش لهواها وشهواتها واباطيل المجد والسيادة فقط هي كالكلب الافرنجي الجميل الذي يقضي حياته كلها تحت قدمي سيده او تحت رداء سيدته . والعجب في امر هذه النفس انها كلما امعنت في اللذات كلما اكفهرت في وجهها افاق الحياة . وقد قال احد المتصوفين

ان المرائي لا تريك عيوب وجهك في صداها
وكذاك نفسك لا تريك عيوب نفسك في هواها

وها اني ذكرت من المحاسن والاماني ما ستنفرد فيه المدينة العظمى عن سائر المدن وهناك امنية اخرى بل نبوءة لاحد الانبياء ترددت في ذكرها . وليلة كنت افكر في هذا الموضوع طرق بيتي طارق ففتحت فاذا بالباب شيخ جليل عاري الرأس حافٍ لابس قميصاً بيضاء فوقها رداء اسود مسدولٌ عَلَى كتفيه . وقف في الباب ورأسه منحنٍ فوق يديه المضمومتين عَلَى هراوته ولما فتحت دخل دون استئذان وسار تواً الى مكتبي وجلس هناك عَلَى كرسي امامي . فاخذني من امره العجب ولكن قبل ان بادرته بالحديث قال : — جئت احقق امنيتك وامدك باخر من ارائي . فقلت والدهشة تملاء نفسي — ومن انت ياسيدي . فقال — انا هو

— هو ؟ من ؟

— هو الذي يخطر الآن في بالك وتحير نبوءته قلبك

— بالله : انت اشعيا بن آموص

— نعم انا اشعيا

فنهضت عَلَى الفور عن كرسي وقبلت يد النبي ولما رأيته قد تبسم تشجعت وقبلت ايضاً شفتيه اللتين لم تزالا ملتهبتين حتى اليوم . ثم تجاسرت فقلت — جئتنا يامولاي وقت العشاء فهلا باركت الخوان

واكلت معنا من عدس لبنان ليصير بيننا كما تقول العامة خبز وملح . فاوماً برأسه مبتسماً وتقدمني الى غرفة الطعام و بينما نحن في طبخة يعقوب بادرته بالحديث فقلت – ألم تتنبأ يامولاي منذ الوف من السنين بجيل يرعى الذئب والحمل فيه معاً والاسد يأكل التبن كالبقر والناس يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ؟ فاحنى النبي رأسه مجيباً بالايجاب .

او لم تقل في رؤساء اورشليم انهم عصاة وشركاء اللصوص وانهم يحبون الرشوة ويتبعون الاجور وان الرب سيقطعهم من اسرائيل ؟ فاحنى النبي رأسه ثانية . فقلت –

وها قد مضى على ذلك ياصاحب النبوة الوف من السنين والعالم لم يزل كما كان يوم صببت عليه شآبيب غضبك . فاجاب اشعيا قائلاً – ان الوف السنين التي مرت على نبوآتي هي كالدقائق في عين الله . والاجيال بالنسبة الى الابدية هي كالساعات بالنسبة الى الاجيال فلا يربك كلامي . ردد نبوآتي ولا تخف . بشر بالمدينة العظمى في بلادي و بلادك ولا تيأس . قال هذا وهمَّ بالانصراف . فاستأذنه بسؤال آخر فقلت – وكيف كان يكلمك الله ياصاحب النبوة و يطلعك على غيب الامور ؟ فقال النبي – مثلما انا اكلمك الآن . وقبل ان فتحت الباب استحال شعلة نار . وتوارى عن الابصار

لاتظنوني مازحاً ايها السادة . فان للانبياء المقام الرفيع في

بدأ يسمع صوتا آخر من فوق المعدة والكبد · بدأ يشعر بدعوة القلب فصار يعطف قليلاً عَلَى اولاده ان لم نقل ايضاً عَلَى شريكته بل جاريته بل بعلته · وعَلَى هذه الحال عاش سنين — وللعلماء ان يجمعوا الالوف منهـا فوق الالوف فان عدها لا يستحق تعب الفكر — عاش سنين وهو لا يرى ولا يسمع سوى ما زينته له الغريزة وحدثته عنه المعدة · اولا ترون ان بعض الشعوب اليوم فضلاً عن القبائل المتوحشة لم تزل في هاته الحالة المنحطة من الحياة · فان القوى المدركة لم تظهر فيهم بعد · وفي هذه الفترة الطويلة الامد نشأت عَلَى ما اظن العبادات والمعبودات التي كانت في بادئ امرها مادية محضة · لان هذا الحيوان الناطق بل هذا الصياد الغازي المسافر ما رأى في الاشياء الاَّ ما ظهر منها · ما رأى في الشمس الاَّ النور · ما رأى في الشجرة الا ثمارها واغصانها وقشورها · ما رأى في النار سوى لهيبها ودخانها ورمادها · ما رأى في الحيوانات سوى ما بدا منها وما ظهر من حركاتها · في تلك الايام السعيدة كان كل حيوان ناطق يعبد طاغوته ويحب مرموزته عَلَى طريقته الخاصة بمقتضى شعوره وهواه عملاً بداعي القلب والغريزة · وبعد مضي احقاب وهو في هذا الغور من الحب والعبادة ارتقى قليلاً الى ما فوق السهول وبدأ يشغل المخيلة منه حتى صار يرى في الاشياء شيئاً تحت القشور (٨) وتحت الرماد · وبما انهُ لم يدرك اسرارها راح يسلي نفسه بالاشعار

و يعللها بالخيالات . وبمقتضى هذا طفق كل انسان يمثل الخالق في الشكل الذي انطبع في قلبه اكثر من سواه . ولا حاجة لتعداد هذه المعبودات كلها . فلو جئت اعدد منها لا ان اعددها لاقتضى ذلك من الوقت ما لا يسمح بهِ المقام . ولكن اذا ذكرنا منها الجعل والشمس فقط نكون قد اتينا عَلَى ذكر اولها وآخرها اوطاها واعلاها . اصغرها واكبرها . وحالة الفرد تجاه معبوده في تلك الايام لم تزل سائرة اليوم في شعوب الارض كلها وما ارتقى في الامم سوى الافراد .

ولكن لنعد الى اجدادنا اصحاب الاكواخ . لما ظهر في الجماعات اناس ارقى نوعاً من اخوانهم وبدا لهم أن الانسان يرتاح الى كل غريب عجيب — والزنجي والباريزي اليوم سواء من هذا القبيل — لما علم هؤلاء الدهاة ما للخيال والوهم من السطوة عَلَى الانفس والقلوب قاموا يؤسسون من هذه العبادات ديانات رسمية . فبنوا الهياكل وحاكوا من اوهام الناس طقوساً وطرائق واقاموا انفسهم رؤساء في الهيكل وبدأوا يتكهنون ويمثلون الله — استغفر الله — يمثلون الطاغوت عَلَى الارض . وهذا في رأيي اول ما كان من امر الوثنية والكهان . واذكروا ان الوثنية لم تزل سائدة في بلادنا والكهان يتعاطون التجارة اليوم في دكانهم القديم . وقد اوضحت كيف كان كل امرئ يعبد طاغوته عَلَى هوى قلبه قبل ان يولد الكاهن . ولكن هذا المرمريت — اللفظة وحشية ولكنها في محلها - اول من

ألف من هذه العبادات ديانة رسمية فشيدت من اجلها الهيا كل ونحتت الاصنام وقدمت الذبائح والقرابين وتسربت الى بيت صاحبنا المتكهن العطايا والاموال . وذلك قبل ان يظهر في الارض الانبياء الذين هم اعداء الملوك والكهان . فاذكروا هذا ولا تنسوه . ان الانبياء لأعداء الظلم في الملك والرجاسة في الهيكل والفساد في الجماعات .

واما الكهان ياسادتي فهم اول من عاثوا في الارض فساداً . هم اول من قيدوا الانفس البشرية واستعبدوها . هم اول من تاجروا بالخداع والتغرير . هم اول من استولوا عَلَى الامراء والملوك وأيدوا سلطانهم بانباء من السماء مكذوبة . والكهان اليوم او رؤساء الاديان كلها هم اعداء الحرية الروحية الادبية . ولا يغرنكم ما بدا منهم من الارتياح الى هذه الحرية التي منحنا اياها الدستور . فان العنان لم يزل في ايديهم والارواح لم تزل في ربقتهم . الكهان هم اعداء الاداب الراقية . اعداء اشتياقات الانفس السامية الى الكمالات الفكرية . عَلَى الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة وصب اشعيا نار غضبه في اورشليم . عَلَى الكهان ومذابحهم وتزاويقهم واصنامهم ورجاساتهم انقضت صواعق حزقيال في اسرائيل وزمزمت رعود دانيال في بابل . عَلَى تغريرات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام عبد الوهاب في نجد ولوثيروس في

وتنبورغ وجون نكس في انكلترا وغيرهم في البلاد كثيرون . فما علينا لو استغنينا عن المتكهنين المدلسين وتفلتنا من ربقتهم واعتصمنا بالله وبدين الله وبانبياء الله . تدبروا كلامي ولا تسيئوا افتهامي . اني احترم العاطفة الدينية التي تكاد تكون فطرية في الانسان ولكني لا اجد في خزعبلات هؤلاء الناس وفي تنطعهم - وقد قيل هلك المتنطعون — ما يساوي ذرة من نفس امرئ راقية . ولكن اذا لبس الكاهن او الامام لغايته ثوباً من التغرير والخداع ولبس المتعبدون ثوباً من الجهل والخرافة فذلك لان الانسان لا يسير في الارض عرياناً ينبغي له ان يستر سوءته ولو بسوءة أسوأ منها .

وقد قال احد المسلمين - ان من آفات الدين فسق المتكلمين وجهل المتعبدين — ايها السادة — المرء يحتاج دائماً الى من يذكره بانه من ابناء اليوم لا من بقايا الامس . يحتاج دائماً الى من يريه الربقة والقيود على روحه يحتاج دائماً الى من يهمس في اذنه او يصرخ في وجهه — انك انسان حر لا آلة في يد هذا او ذاك يتصرف بها ساعة يشاء كيف شاء فياايها الشرقيون ان تحت خريف نفسكم الدائم ربيعاً جميلاً اذا كنتم تعقلون . ان تحت رهوكم موجات عظيمات لو ناهضتم العاصفة ولو مرة في الحياة . فان مثل هذه النهضات الروحية مثل هذه الثورات الادبية وان كانت عاقبتها اليوم غير مرضية فهي غداً للنفس منعشة محيية . مثل هذه النهضات تعوّد المرء الفكرة وتروض منه

الارادة وتكسبه المنعة والاستقلال . ان للماضي اثراً قوياً في العروق . ان فتور النرقي وخموله لفي الدم . فان كان لا يمرن نفسه وارادته عَلَى ما يحرك الدم — دم الجسد ودم الروح معاً — يظل ما دام حياً كطلل من اطلال الزمان ولا ينهض الشرقيين من هذا الغور المظلم سوى الثورة الادبية التي يتبعها انقلاب عظيم في الاخلاق

فها اننا صرنا امة حرة ذات حكومة دستورية . ولكن ذلك لا ينافي ما في العائلة وما في الطائفة وما في المدرسة من الجور والحيف والاستبداد . من العماوة والجهل والفساد . ذلك لا ينافي ما في اصطلاحاتنا الاجتماعية - واكثرها من فضول هذه التمدن الافرنجي — من الضيم والشقاء ما لا يماثله ظلم اظلم حكومة مطلقة . الاترون ان التاجر لم يزل مخبي الظهر تحت امواله وصكوكه ، وان الصانع لم يزل اسير هذا العبد سيده ، والتلميذ في المدرسة اسير جهل استاذه ، والاستاذ اسير استبداد رئيسه ، الاترون ان المصلح السياسي مرهونة حريته لخطة حزبه ، والكاتب حريته عند قرائه او في قبضة رزقه ، والصحافي حريته في جلده واستقلاله في كيسه ، — لا تؤاخذوني فقد وعدتكم في البداية بان اسمي المعول معولا والعقاب عقابا - الاترون ان المرأة في البيت مقيدة بارادة زوجها عادلة كانت او جائرة . وان الأب لم يزل يعتقد ان اصول التربية في تأييد سلطته ، وان المأمور في الحكومة يتألم من ضغط ذاك الجالس فوق رأسه ، والجندي من

استئثار ضباطه ، والكاهن من ظلم اسقفه ، والاسقف من استبداد بطريقه ، والراهب يحترق في نذره ويئن من عنف رئيسه ، والفلاح يتأوّه من جور اميره ، بل يصرخ في بعض الاماكن تحت سوطه،شولم صحافة ؟ صرنا شعبا حراً · شولم دستور ؟ صرنا امة راقية ·

اي اخواني اسمعوا التقية تهمس في أذن هذا الشيخ - حافظ عَلَى مركزك · اسمعوا الخوف يقول لذاك الصحافي — حافظ عَلَى مصلحتك اسمعوا الذلة ترشد اخينا الفلاح قائلة — اتقِ بطش سيدك · اسمعوا الجبانة تهمس في قلب الراهب — إتق الفضيحة وحافظ عَلَى ثوبك · فالتقية والخوف والذلة والجبانة هي اعداء حرية الانسان الحقيقية · وان لم يحرر نفسه منها بنفسه فمائة قانون ومائة دستور لا تحرره · واعلموا ان الارادة المستولية عَلَى ارواحنا لا يخلصنا من ظلمها الا ارادة اشد واقوى منها ·

لذلك ادعوكم الى ثورة ادبيــة · اناشدكم بالحرية التي بعثت من غور ماضينا حياة جديدة الا تدعوا الخوف والتقية والذلة والجبن تستولي عليكم متى شعرتم بيد تضغط جوراً عَلَى انفسكم · متى رأيتم حريتكم الادبية مقيدة امامكم · ارفعوا اعلام الاداب في البلاد شيدوا صروح التهذيب اسسوا معاهد للفنون · فان الاداب والتهذيب والفنون هي القوى الادبية الروحية التي يتآلف فيها العلم والدين ويقرن فيها بين بديهيات الانبياء ومعقولات العلماء وتمتزج فيها روح الحقيقة وروح

الجمال . وتنبثق منها اشعة السلم والحب والاخاء . اجل هي القوى التي يتوقف عليها تحرير الانسان وتحرير الشعوب والامم . لنعزز الاداب اذاً والفنون . لنؤيد بالقول والعمل التعاليم السامية . لننصر الاراء الحرة السديدة . ومتى رأينا أن الحزب الذي ننتمي اليه اوالطائفة التي نحن منها والجريدة التي نكتب فيها تحاول تقييد افكارنا او الضغط عَلَى عقولنا اوالمتاجرة بارواحنا فعلينا ان نخرج منها سريعاً وننفض عن نعلنا غبارها . انشرف المرء في حرية عقله ونفسه وشرف الاحزاب في حرية رجالها . وشرف الطوائف في حرية ابنائها .

اخواني — ما الناس الا امة واحدة وستجمعهم في المستقبل ان شاء الله جامعة واحدة هي جامعة الاداب والفنون . ودين واحد شامل قوامه الأبوية الالهية والاخاء العام .

المدينة العظمى (١)

سادتي وسيداتي

قص ارستو الشاعر اليوناني قصة عرافة تتراءى للناس اثناء الربيع والصيف في صورة ملك سماوي واثناء الخريف والشتاء في شكل حيةٍ رائعة هائلة . وكانت هذه الساحرة تغمر بفضلها والائها اولئك الذين احسنوا اليها وعاملوها بالمعروف في فصلي الشتاء والخريف . واما الذين اساؤوا معاملتها وحاولوا قتلها وهي في تلك الصورة المخيفة فكانت تحرمهم هذه النعم والبركات . وقد شبهت الحرية بهذه العرافة العجباء التي تبدو تارة كالملك وطوراً كالحية الرقطاء . فالحرية في بادىء امرها تتخذ هذا الشكل المزدوج الغريب الذي يتخوف منه بعض الناس و يغالي في مدحه الاخرون . في الامم التي الفت العبودية تظهر الحرية اولاً كالحيةً فتتحول رويداً رويداً الى ملك سماوي . وما من منكر ان حرية العثمانيين لم تزل في فصل الشتاء حريتنا لم تزل كعرافة ارستو في شكلها الهائل المخيف . ومع ذلك علينا ان نصبر عليها ونحسن استقبالها حتى اذا استحالت ملكاً

(١) خطبت في الحفلة التي أقامتها جمعية طلبة العلم العثمانيين في ٧ ايار سنة ١٩٠٩ في المرسح الجديد ببيروت

العالم الروحي . لم تزل لهم تلك السطوة الصالحة عَلَى الانفس السامية . وانك اذا حككت نفس اكبر نابغة في العالم تجد في لبها شيئاً من روح النبوة . المدينة العظمى اذاً هي التي تتم فيها نبوة اشعيا . هي التي يسير الذئب والحمل والنمر والجدي فيها معاً . هي التي يرتاح فيها الناس من شرور اصحاب السيادة الدينية . هي التي تنقطع فيها سليلة اولئك المفترين عَلَى الله وانبيائه الجالسين عَلَى عروش القداسة الكاذبة القابضين عَلَى صولجان الخرافة المتوجين بتيجان الجهل والتعصب والطغيان . ان مصيبة الشرق في رجال الدين والكهان لا في الانبياء والاديان . المدينة العظمى هي التي يسود فيها العلم والحرية والاخاء والوفاء هي التي تنتصر فيها القوى الروحية على القوى المالية والقوى العقلية عَلَى القوى المادية . هي التي تطبع فيها آلات الحرب معاول ومحارث ومناجل . هي التي تشيد فيها الصروح والمعاهد لارباب الموسيقى والشعر والتصوير ولربات الفنون والجمال . هي التي يكثر فيها من امثال علي بن ابي طالب واشعيا بن آموص وذاك الامير العربي الذي ساد قومه لانهم احتاجوا الى علمه واستغنى عن دنياهم . اي سادتي . ان المدينة التي ينبغ فيها اعظم الرجال واعظم النساء لهي اعظم مدن العالم وان كان سكانها لا يتجاوزون عدد سكان الفريكة

(م)

قيمة الحياة (١)

ايها السادة والسيدات ·

عندما وصلتني دعوة جمعيتكم لاخطب في حفلتها السنوية هذه كنت مهتماً بانجاز تأليف جئت في بعض فصوله عَلَى ذكر اجدادنا الفينيقيين · فسرني ان ارى شيئاً من علو همتهم ونشاطهم في ابنائهم الصيدونيين · سرني ان ارى مصابيح العلم والعرفان تضيء عَلَى هذه الشطوط القديمة التي نشأت في ربوعها اللغة وكبرت فيها همة الفينيقي التجارية والعقلية فجاء بما يدهش الافرنج حتى اليوم من آيات الفكر الباهرات ومن غرائب الاكتشافات والاختراعات · سرني ان ارى روح اولئك الاجداد الكرام تنبعث اليوم فينا فتنهض بنا الى العلياء · وعجبت بصدف ترينا في صدف الحوادث لؤلؤ الاماني فلبيت الدعوة عَلَى ما كنت فيه من شغل شاغل وتأهب للسفر مزعج حباً بزيارة مدينتكم وبمساعدة هذه الجمعية الوطنية في مشروعها — اذا كان في حضوري ما ينفع وفي كلماتي ما يفيد · على اني في قراءتي كتاب الجمعية وقفت عند عبارة مدهشة · والظاهر ان كاتبه الكريم طويل الباع في طرق الاطراء

(١) خطبة القيت في حفلة جمعية الخدمة الوطنية بصيدا في ١١ اذار سنة ١٩١٠

واساليبه . فبعد ان غلاني بالغلو واغرقني بالاغراق . رغب الي ان اتحفكم بخطبة «لم تفتق رتق سمع ، ولا خطب مثلها في جمع» — السجعة له لا لي — فقلت في نفسي وماذا يبتغي الصيدونيون مني وما انا بصاحب معجزات او كرامات . ان خطبة مثل هذه ايها السادة في زمن كثرت فيه المنابر والمطابع لا يستطيع ان يأتي بها بشر مثلي . لا جديد تحت الشمس ولا فوقها . فالمذنبات التي لا نراها نحن الا مرة في حياتنا مثلا مرّت لا شك في فلك الارض بمرأى من اسلافنا مرات عديدة في ما مضى من الزمان . لا جديد فوق الشمس وصوت الحقيقة الذي أحب ان اسمعكم اياه هذه الليلة طالما ردده قبلي العلماء والانبياء لا جديد تحت الشمس عَلَى انني استطيع ان احدثكم بلغة لم تسمعوها بعد اذا كانت بغيتكم تنحصر في مجرد رؤيتي واستماعي خطيبا . يمكنني ان احدثكم في عُضارطة[١] السياسة ودهاقينها[٢] ، الذين يلهوجون[٣] اعمالهم ويلهوقونها[٤] ، او في زرازرة[٥] يمشون في الارض سبهللا[٦] ، ولا يحسبون سواهم للمجد أهلا ، او في سباهلة[٧] يجمّشون[٨] العجنجرات[٩] ، ويعدّون ترهات

---

(١) العضارط الخادم عَلَى طعام بطنه والاجير واللئيم (٢) الدهقان «معربة» رئيس الاقليم (٣) لهوج الامر لم يبرمه والشواء لم ينضجه (٤) لهوق العمل لم يحسنه (٥) الزرزار البطرك «العجمية» (٦) جاء الرجل سبهللا اي مختالاً وغير مكترث (٧) سبهل بطّال كسل (٨) جمّش غازل (٩) العجنجره من النساء الخفيفة الروح

العصر ايات منزلات، او في رعابيب[١] يسمدن[٢] في المركبات، او يتبهنسن[٣] في العرصات، ويحسبن المخشلب[٤] على صدورهن درراً وريش الطيور على رؤوسهن تيجانا . او في صفاريت[٥] من الادباء يطوفون حول القصور المشمخرات[٦]، علهم يفوزون بشيء من اعلاق[٧] السراة، او في خرّيت[٨] من ولاة الامر خيدع[٩] اذا استذريت[١٠] به قادك الى محطمة سجيل[١١] . او في غطريف[١٢] كبير، ترّفته الدنانير، وحسدته على أذنيه الحمير، او في متنطع مخرنبق[١٣] دفطس[١٤] وقته في حشو جؤجؤه[١٥] بما لا يفيد من العلوم . او في — ولكن البساطة اولى واشفى . مالنا وخطبة «لم تفتق رتق سمع . ولا خطب مثلها في جمع» فها قد اسمعتكم ما يفتق الاسماع حقاً بل يفلق الصخور .

ساحدثكم الليلة في موضوع قريب منا كلنا بلغة تسمعونها كل

---

(١) الجارية الرعبوب الحسنة الرطبة الحلوة الناعمة (٢) سمد الرجل رفع رأسه تكبراً (٣) تبهنس تبختر (٤) مخشلب خرز من الزجاج (٥) الصفريت النقير (٦) اشمخر طال والمشمخر من الجبال العالي (٧) العلق النفيس من كل شي (٨) الخريت الدليل الحاذق الذي يهتدي الى آخرات اي مضايق المفاوز وطرقها الخفية (٩) الخيدع من يوثق بمودته (١٠) استذرى بفلان التجاء اليه وصار في كنفه (١١) سجيل وادٍ في جهنم والمحطمة باب فيها (١٢) الغطريف السيد الشريف (١٣) تنطع في الكلام تعمق وغالى وتأنق (١٤) المخرنبق المطرق الرصين (١٥) دفطس اضاع (١٦) الجؤجؤ الصدر

وهذه عشرون وخمس فعلات لغويات استغفر الله منها .

يوم و بعبارة نفهمونها وانتم الى اشغالكم سائرون . موضوعي قيمة الحياة واريد بادىء بدء ان اسدل ستاراً عَلَى الماضي وآخر على المستقبل فاحصر الحياة في الحاضر واسأ لكم سؤالاً : لو علمتم حق العلم ان الحياة صدفة من صدف الطبيعة وان لا سابق قصد لها ولا لاحق لا قوة مدركة وراء المهد ولا وراء اللحد . فترسلها وتبعثها عقلا وروحاً - وبكلمة اخرى لو تأكدتم ان الحياة مادية محض والموت ضجعة ابدية كيف تعيشون ياترى و كيف تعملون لترفعوا من قيمتها وتجنوا الناضج اللذيذ من ثمارها ؟ اتجعلون قاعدتها الاساسية قاعدة التجار والمتمولين ان لا حقيقة في العالم الاَّ المال ؟ اتقولون قول السياسيين والمسيطرين ان لا حق في العالم الا القوة ! اتذهبون مذهب فلاسفة اليونان الكلبيين ان لا حقيقة في العالم الا اللذات . أو تقولون قول حشاشي الزمان القديم ان لا حقيقة في العالم عَلَى الاطلاق وكل شيء مباح ؟ لو تأكدنا ان الكون مركب من المادة والقوة فقط وان الحياة كذلك اينبغي ان نعيش كالحيوانات ؟ وان نحن فعلنا اأمن شر انفسنا ان لم اقل شر الاقوياء فينا . اذا احب احد الناس ان يعيش كما لو كان هو العالم و بيته الدنيا واستطاع الى ذلك سبيلاً ايستطيع ان يذهب عَلَى هواه دون ان تذهب حياته ضحية الاطماع والاهواء . ولو ضحاني هذا السيد العظيم الاثيم وضحاكم عَلَى عرفات قدسه ومجده واهوائه اياًمن ياترى صولة الجماعات حين يستيقظون فينهضون ؟ أآمن هو

ويد فوق يده تأخذ بناصيته يوم يثأر الحق باعدائه ؟

حكم عبد الحميد ثلاثاً وثلاثين سنة وهو لا يحسب ان في العالم من ينبغي ان تراعى حقوقهم وحياتهم سواه . فماذا كانت عاقبة بغيه وجوره واثرته .

لا انكر ان نظرة عمومية سطحية في احوال الانسان الاجتماعية ترينا الشرير يسعد بشره والصالح يشقى بصلاحه . ولكن ذلك لا يكون الى الابد . وانما يظهر كذلك لمن لا ينظر في الامور الى ما وراءها لمن لا يرى في الحياة غير ظواهر الحوادث . مات كثيرون ممن قاسوا اليم العذاب من الدور الماضي دون ان يشاهدوا نكبة سلطانه واعوانه . ماتوا يائسين من الحياة التي ينتصر فيها مثل هؤلاء الاشرار الكبار . ولكن قصر نظرهم فيئسوا . ولو تشوفوا الى المستقبل وكان ايمانهم شديداً بالعناية التي لا تترك الاثيم عزيزاً الى الابد لما ماتوا يائسين . ان ما نراه نحن اليوم مثلاً ونفر منه ساخطين حانقين يراه غداً آخرون فيستجلون فيه اليقين . ان شر الامس لينتج اليوم خيراً وخير اليوم قد ينتج غداً شراً . اجل سادتي ان في الاشياء والاكوان عناية لا يعقلها الانسان ولا يدركها ارباب العرفان . ان في الحياة اسراراً تدك العروش وتزعزع الجبال لو تجلت كلها دفعة واحدة في آن واحد . ولكنه تعالى عليم رحيم فهو لا يمكننا الا مما نحتاج اليه من القوات الخفية في الحياة فنستخدمها لخيرنا لو عقلنا لمنفعتنا . ونقف صابرين

هادئين ثابتين امام مفظعات الوجود ومبهجاته . وعندي ان هذه الاسرار تتجلى للانسان تدريجاً على حسب ارتقائه العقلي والروحي ذلك لان الحياة سلم اوله الحيوان ووسطه الانسان وآخره الملاك . وقد يأتي يوم يشاهد فيه ابناء الارض رجل المستقبل العظيم وقد ترقت فيه القوى الحيوية كلها اي القوى الحيوانية والبشرية والالهية الى منتهى الدرجات . الانسان مركب من هذه كلها وقواها كامنة فيه الى الابد . فان رعى احداها دون الاخرى يقف في سلم الارتقاء وطبائع الحياة فيه ناقصة فاسدة نعم اني ممن يعتقدون بالنشوء والارتقاء ولا حاجة الى ان يؤيد العلماء اعتقادي . فاني لمؤيده بما اعرفه وبما اجهله من لوح هذا الوجود . من الحياة ومن الاكوان . ان في نشوء الانواع وارتقائها عناية الهية عظيمة . والناموس الطبيعي الذي يكثر من ذكره العلماء انما هو مشيئة الله في الاشياء . اني لارى يد الله في كل مظهر من مظاهر الحياة . واؤمل ان ارى ولو بعد موتي بمليون من السنين روح الانسان متجلية في كل مظهر من مظاهر الله .

اراني تجاوزت الحدود الوهمية التي حصرت هذا الموجود ضمنها فاصبحت والماضي والمستقبل يتجاذبان فيَّ المعقول والمحسوس . وكيف نستطيع ان ننظر في الحياة نظرة بعيدة صائبة دون ان نتلفت الى الماضي ونتشوف الى المستقبل . كيف يمكننا ان نقيسها لنعلم قيمتها وكل شيء فينا وحولنا ينطق بما مضى وبما هو آتٍ مما هو قسم

جوهري من الحياة البشرية . احببت ان احصر الموضوع في الحاضر لاريكم ان الحياة وان كانت مادية محض لا يستطيع الانسان ان يذهب فيها حسبما يشاء ويسترسل الى ملاذّه واهوائه دون ان تخثر نفسه ، فيغلظ شعوره ، فيكثر عثاره ، فيشتد بلاؤُه ، وان شقاء الناس اليوم لناتج عن هذه الحياة المادية الحيوانية التي يكبرونها ويعززونها ويعرقون دماً في سبيلها . ألا اننا نعيش اليوم كما لو كانت الحياة منحصرة في البورص والمخزن وغرفتي الطعام والنوم نعيش كما لو كانت قوام الحياة في جمع المال وفي تربية دود الاهواء والشهوات . ويالها من دود تحوك للنفس وللجسد اكفاناً من الحرير. نعيش كما لو كنا آلات هضم واكثرها في هذا الزمان مصدئة وانصاب مجد واكثرها متهدمة . فالسياسي لا يرى في الحق قوة تستحق الاعتبار ان كان الحق لا يؤيده في ضلاله وفساده . ورجال الدين يصمون اذانهم عما جاء في كتب الدين من سديد التعاليم ويستخرجون من بعض الايات والعقائد قواعد تمكنهم من الضغط على الانفس والعقول لتكون لهم في ذلك سلطة ما انزلها الله على احد من الناس . والصحافيون يزفون ثناءهم لهذا الخاطب ويبذلون شهادتهم لذاك الطالب حباً باعلان او اشتراك يحرزونهُ . او انهم يوقفون الحق على رأسه غواية ونكاية . او انهم يتحاملون على الناس ويثيرون المفاسد والفتن حباً بالظهور والاشتهار . والغني فينا يعيش كما لو كانت

الاموال تقيه الموت وتكسبه الخلود . والتاجر يضرب اخماساً لاسداس ليل نهار فيستنبط طرقاً بل حيلاً جديدة للكسب والاثراء . والوجيه الفاضل الواقف عَلَى شفير الافلاس يكتد الفلاحين الفقراء ويعرقهم ليؤيد فيهم منزلته العالية ومقامه الرفيع الشان . ترانا نعيش كأن الحياة بنت يومها منحصرة بين شارقة وغاربة . مركبة من امشاج لا اثر فيها للعقليات والروحيات . بلى . نعيش كما لو كنا مركبين من السنة ومعدواكباد فقط فنحسن اللقلقة والكبكبة والشر الثالث الذي ذكره النبي في حديثه الشريف ولا نحسن سواها . نعيش لاهوائنا واطماعنا وملاذنا . . نعيش لمجد في العالم باطل . نعيش لوجاهة فينا فارغة . نعيش لازياء تستعبدنا . لعادات واصطلاحات تسوقنا الى المذلات . وفوق ذلك نعيش في الخداع والجربزة والتلبيس . نخادع لخوف فينا يسودنا . نلبس عَلَى الله والناس لغايات في النفس خبيثة ذميمة . نتآخى طمعاً بربح من هذا الاخاء . نتصادق حباً بما في الصداقة من عائدة مادية بائدة . وقال المتنبي :

ولما صار ود الناس خباً جزيت عَلَى ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيه لعلمي أنه بعض الانام

* * *

كانت لامرئ كرمة يأوي الثعالب اليها ويفسدون فيها . فنصب هناك مَفْزعة او خيال صحراء ليردعهم عنها . فجازت الحيلة

على الثعالب وعجبوا لصاحب كرمة يحرسها ليل نهار ليقطع نصيبهم منها . الا ان احدهم وكان اشجعهم وادهاهم بادره الريب من ذلك فجاء الكرمة ذات يوم ووقف ساعة امام المفزعة دون ان يفزع منها . ثم تقدم اليها قليلاً قليلاً وضربها بيده، فوقعت الى الارض . فضحك ثم ضحك ورفع فوقها جنبه وراح يدعو اخوانه الى اجتماع وطني سياسي . وخطب فيهم قائلاً : ان الانسان لخداع مكار فقد حرمنا نصيبنا من الكرمة بخيال نصبه فيها . ومن رأيي ان نحذو حذوه لنفوز عليه . فاقترح عليكم نصب خيال اسد هناك لننال قسمتنا من الكرمة . فصفق الثعالب الجياع له ونصبوا في كرمة الانسان مفزعة بهيئة الاسد . ولما جاء الانسان في اليوم التالي ورأى الاسد واقفاً هناك ينظر اليه وقف شعر رأسه وهرول راجعاً الى بيته . وكذلك نال الثعالب الجياع قسمتهم من الكرمة . خدعهم الانسان بخيال فخدعوه بمثله .

وكم من خيالات وبعبعات تحفظ اليوم كياننا وتدفع عن شرفنا الوهمي عاراً وهمياً . كم في حقول الدين وصحاري السياسة وكروم التجارة من مفزعات لو ضربت مرة لاصبحت مفضحات . اجل ان الحياة اليوم سواء كانت في ارقى مظاهرها الاوروبية او في انحم مظاهرها الشرقية انما هي حياة خاسئة فاسدة ناقصة . هي عند الغربيين محض مادية تجارية . وامست عندنا لا مادية تعرف ولا روحية . حياتنا

ايها السادة وان كنا لم نزل نؤم الكنائس والجوامع كاجدادنا ان هي الا العوبة في روحياتها واضحوكة في ماديانها . هي مزيج فاسد من الاثنين . وهذا سبب الشقاء والبلاء والفساد في طبقات المجتمع كلها . بل هذا من وجهة خصوصية السبب الاصلي في انحطاط الشرق والشرقيين . ولكني اقول وحق ما اقول ان سيادة الاوربيين في الشرق لا تدوم طويلاً اذا كان اساسها القوة المادية فقط . وان نهضة الشرق لا تنجح ان كانت اساسها الروحيات فقط . الكتب المقدسة تصلح الحياة . ولكنها لا تعمر البلاد . والعلوم المادية تعمر البلاد ولكنها لا تصلح الحياة . اذن كتبكم المقدسة احفظوها وكتب العلم عززوها . وكل كتاب ايها السادة يساعد على حفظ الحياة وتحسينها وارتقائها هو عندي كتاب كريم مقدس . والحياة الصحيحة القوية الجميلة السابغة هي التي تتغذى من كل كتاب مقدس روحياً كان موضوعه او مادياً . ذلك لانها مركبة من الاضداد . ذلك لانها مادية روحية عقلية . ومن النواميس الطبيعية المعروفة ان قوى الانسان تنمو وتشتد في التمرين والممارسة . فاذا كنا لا نمارس الا قوانا الحيوانية وفينا قوى اخرى عقلية روحية نظل لا شك في درجة واطئة من سلم الحياة . بل نظل والجهل والبلاء اكبر ما في حياتنا . ذلك لان القسمين الكبيرين فيها اعتراهما الفساد من الاهمال . ولو مرّن المرء قواه العقلية والجسدية فقط لظلت الروح

فيه مهملة مغبونة . وكثيراً ما تكون تشوقات النفس المظلومة سبباً لعوارض وامراض شتى . كثيراً ما يكون شقاؤنا ناتجاً عن فساد احدى قوانا العقلية او الروحية .

وها اني وصلت الى الحد الذي ينبغي ان نعرّف عنده الحياة لنعرف كيف نقيس قيمتها . مما تقدم يتضح لكم ان الحياة اصلاً انما هي قوات عقلية روحية مادية تظهر في الناس بمقادير متباينة ناقصة ولكنها كامنة بالقوة وغير محدودة في كل نفس بشرية . قلت « انها كامنة بالقوة » والعبارة فلسفية وضعية لا احب ان اردّدها واكثر من مثلها . على انني اورد الفكر بعبارة بسيطة . ان في كل منا قوىً غير محدودة من هذه الينابيع الثلاثة تظهر فينا او في نسلنا بمظاهر شتى طوعاً لاحوال نعقلها اذا اعتبرنا ولاسرار لا نستطيع اليوم ادراكها هذي هي الحياة نظرياً . مبدئياً . واما عملاً — آه لو كانت حياتنا الدنيا ابتسامة دائمة تبتدئ بالسرور وتنتهي بالابتهاج . آه لو كانت حلماً من احلام الشعراء او لحنا مطرباً مفرحاً من الحان الموسيقيين ! ولكن الحياة في نظر أحد القديسين انما هي عقاب الانسان في هذا العالم . وفي نظر الفيلسوف هي سلسلة من حديد المصائب فيها حلقات قليلة من ذهب العزاء والهناء . وفي نظر الشاعر هي هيئات هيولية محزنة لاسرار سامية غامضة . هي خيال زائل لحقيقة ازلية دائمة . وفي رأي سيدنا سليمان كل شيء باطل وقبض الريح . وفي رأي جمهور

الناس انما الارض وادي الدموع . فالقديس اذاً والفيلسوف والشاعر والحكيم والناس كلهم مجمعون عَلَى ان حياتنا الدنيا لا تساوي العناء الذي نقاسيه من اجلها . بل لا تساوي العرق الذي يتصبب من جباهنا في سبيلها . ولكني ارفع عَلَى هذه الاراء كلها رأياً آخر اود لو سمعتموه وحفظتموه وتمثلتم بهِ في كل موقف وفي كل آن . ألا ان الحياة صالحة اذا كان المرء صالحاً . وجميلة اذا كانت نفس المرء جميلة . والانسان لا يكون صالحاً ونفسه لا تكون جميلة اذا كان لا يربي و يرقي فيه قواه الروحية والعقلية والمادية كلها عَلَى السواء ومن النادر ان نجد في العالم اليوم حياة تامة الاجزاء ارتقاءً ونشاطاً وادراكاً في شخص واحد . فاذا كانت القوة العقلية عظيمة في احد الناس راقية تكون القوة الروحية او الجسدية فيه منحطة

والعكس بالعكس . ودفعاً لما قد يكون في كلامي من الابهام ازيدكم ايضاحاً بما اريده بالحياة التامة الاجزاء ارتقاءً وفهماً ونشاطاً . فالقوة الحيوانية التي ينبغي للانسان ان يرعاها و يتعهدها بالتربية تظهر نتائجها في صحته وصحة نسله . والقوة الروحية تظهر في شعوره الراقي وحبه . والقوة العقلية في ادراكه ونباهته وحكمته . واعلموا ان العالم مثلاً يكون غالباً قوي الادراك ضعيف الشعور . والشاعر شديد الشعور ضعيف الادراك . والفلاح او البدوي يكون غالباً شديد الجسم

ضعيف الشعور قليل الادراك اما قيمة الحياة في كل من هؤلاء وان كانت ناقصة فتختلف بالنسبة الى ما يأتون بهِ من الصالحات الباقيات. فقد تكون قيمة حياة البدوي في نسله اعظم منها في نسل العالم وقد تكون في الشاعر اعظم منها في العالم العلامة والحبر الفهامة

قد لا ينتبه ارقى الشعوب حتى في هذا العصر الى ما في الوجود من دواعي الارتقاء كلها والصحة والسعادة . ففي الشرق نظن الوسخ عرضاً والخمول نعمة والخبل مصدراً للتجليات الروحية . وعن هذه الاوهام ينشأ التقشف والزهد وما يصحبهما من اذلال الجسد واماتته . وفي الغرب بدأنا نرفع من اسباب النظافة والصحة الى حدٍ لا تعلوه اقصى الغايات . وقد قال الفلاسفة هناك ان واجبات الانسان الاولية ان يكون حيواناً نشيطاً قوياً . ولكن اذا نحن اهملنا ترويض الاجسام فهناك بدأوا يهملون ترويض الارواح . وفي الامرين نقص ظاهر . عَلَى الانسان ان يعتني عَلَى السواء في تربية وترقية قواه العقلية والجسدية والروحية كلها . ساضرب لكم مثلاً من هذا النقص في التربية حتى في مشاهير الرجال . في الفيلسوف سبنسر كانت قوة الادراك راقية الى حد نادر المثال عجيب . واما قوة الاحساس والانعطاف - اي القوة الروحية — فكانت فيه اضعف مما قد تكون في احد سكان اواسط افريقيا وفي الشاعر دَنته نجد القوة الروحية عظيمة في شعره كما كانت في حياته . واما القوة العقلية اي قوة

الادراك فما هي كذلك · ومثل هذه الموازنة تصح بين ابن الفارض وابن رشد · او بين البهاء زهير وابي العلاء · وعندي ان في رجل المستقبل العظيم يتجسد الفيلسوف سبنسر والشاعر دَنته او العالم باستور والقديس اوغسطينوس او ابن الفارض وابن رشد · سيجبل الله انساناً جديداً كاملا من الطينتين · من النصفين · وهو على كل شيء قدير·

من هذا يتضح لكم رأيي في ماهية الحياة واقصى غاياتها · اجل ان الحياة الحقة هي التي تجمع بين محاسن فلسفة الروحيين وفلسفة الماديين · هي التي يشارك صاحبها ابيكوروس في لذاته وافلاطون في روحياته وسقراط في ادراكه وحكمته · هي التي تعظم فيها قوة الجسد وقوة العقل وقوة الروح · التي تؤلف بين اول درجات سلم الحياة وآخرها · بين الحيوان مصدرها والملاك محجتها · مثل هذه الحياة كنز من كنوز الدنيا وقيمتها لا تقدر ولا تحد ·

اما حياتنا اليوم — حياة عالمنا او تاجرنا او كاهننا او فلاحنا — فهي ناقصة ضيقة خاسئة فاسدة وكذلك نتائجها · فكم من عمل فيه اخلاص وما فيه شيء من العقل من عمل فيه عقل وما فيه شيء من الاخلاص · ومن عمل فيه اقدام وشجاعة بل قحة وسلاطة وما فيه ذرة من العقل والاخلاص · ومع ذلك نستطيع ان نجعل حياتنا اليوم ذات قيمة تذكر اذا سرنا الى غرضنا بجزم وعزم ونشاط وثبات واقتطفنا من الاعمال الناقصة · ما هو صحيح ناضج من ثمارها · اذا كنا حقاً

احراراً — اذا كنا صادقين مخلصين محبين مدركين فنعرف اين تنتهي حريتنا واين تبتديء حرية جارنا . — نمهد بشيء من العلم والصلاح سبيل للحياة الحقة التي وصفتها . الحياة البشرية المستقبلة التامة الاجزاء ارتقاء وصحة وفهماً نعم ان قيمة مثل حياتنا اليوم لهي ناقصة تافهة ولكنها بالنسبة الى ما هو دونها تستحق الاعتبار . حسبنا ان تنقص فينا اليوم الجربزة والتلبيس والخداع فتعلو بالنسبة قيمة الحياة . حسبنا ان يتقدم في كل بلد احد الناس الاقوياء بصلاحهم الجريئين بفكرهم فيضرب احدى مفزعات الناس ويحطمها . الخيالات والبعبعات والاوهام والخزعبلات — كلما زال شيء من هذه ترتفع بالنسبة قيمة الحياة .

قل لي اذاً ايها المحترم ما هو اعتقادك الحقيقي فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ياصاحب السعادة والعزة ما هي امالك في اعمالك فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ايها الصحافي الحر ما هي غايتك الكبرى في تسويد الصحف فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ايها الغني ما هو قصدك الاولي في جمع المال فاقول لك ما هي قيمة حياتك . قل لي ايها الانسان ما هي اسرار قلبك اقل لك ما هي قيمة حياتك . قولي لي ايتها الامرأة ما هي غايتك القصوى في الدنيا اقل لك ما هي قيمة حياتك .

اخواني · اخواتي ·

ان قيمة حياتنا اليوم ما نزرعه في القلوب من البر والصلاح · وفي العقول من العلم والحكمة · قيمة الحياة ما يعود الينا من ثمار الحب الذي نزرعه في صدور الناس · قيمة الحياة ما يأتي به كل منا من الصالحات الباقيات مادية كانت او عقلية او روحية · فالغني الذي يقدر حياته بما عنده من المال يرفع من قيمتها اذا بذل من ثروته لنشر المعارف واستئصال الامراض وتخفيف وطأة البؤس والظلم في العالم · والعالم الذي يقدر حياته بما عنده من العلم يرفع من قيمتها اذا محص علمه من الغش والخداع من السفاسف والاوهام وبثه في الناس صافياً لوجه الله · والمتقشف الذي يقدّر حياته بما عنده من الزهد والتقوى يصنع خيراً اذا كان تقشفه يفيد في الاقل افادة سلبية فيخفف فينا وطأة زخرف هذه الحياة المدنية · عَلَى ان العالم والغني والزاهد قلما تنفع حياتهم وقلما تكون ارفع قيمة من حياة احقر الناس واجهلهم اذا كانوا لا يعملون لغير انفسهم · وشر الحياة حياة لا انعطاف فيها ولا اخلاص ولا حب ولا حماسة ·

واما رجل المستقبل ذاك الذي تتم فيه اجزاء الحياة كلها وتتساوى صحةً ونشاطاً وفهماً ورقياً فسيتمكن ان شاء الله من الجمع بين حسنات العالم والغني والمتقشف · بين محاسن العقل والجسد والروح · بين الخيال والحقيقة · بين جمال الشعر وجمال الحكمة وجمال الصحة ·

مثل هذا الرجل الذي يعيش في الحاضر كما لو كان الحاضر الابدية كلها فلا يعمل عملاً لا يشترك فيه عقله وروحه وقلبه . هو يشغل رأس ماله في اسواق الحياة الثلاثة فلا يكون عالماً عاجزاً لا يحسن التصرف في غير منزلته ولا غنياً جاهلاً ولا زاهداً أخبل . هو الذي يحيي قواه كلها و يرعاها فيغذي العقل والروح دائماً كما يغذي الجسد . هو الذي يروض نفسه للشدائد كما لو كانت من ضروريات الحياة . هو الذي لا يعوّل في اموره عَلَى احد من الناس . هو الذي لا يحترم في البشر الا العلم والذكاء والصلاح . هو الذي لا يحابي في سبيل العدل احداً ولا يخشى في سبيل الحق انساناً . هو الذي يعيش لنفسه ولربه وللانسانية في وقت واحد . ان حياة مثل هذا الرجل لكنز من كنوز الدنيا وقيمتها لا تقدر ولا تحد .

هملت وشكسبير (١)

يتوقع مني بعض الناس توجيه كلمة الى اولئك الذين اساءوا فهم خطابي الاخير في الكلية الاميركية . ونشروا عَلَى صفحات الجرائد مثالاً من تسرعهم في النقد وبطئهم في الافتهام ، ولكنني آليت عَلَى نفسي الا اوضح لاحد والا اجادل واناقش احداً . فان الذين يعرفونني ويفهمونني بغنى عن الايضاح والذين لا يحبون ان يعرفوني ويفهموني وان صرفت ما بقي من حياتي شارحاً مفسراً موضحاً فانهم لا يقتنعون ولا يفهمون . لذلك لا اضيع وقتي فيما لا طائل تحته لا لكم ولا لي . لذلك لا اجادل احدا ولا اناقش بشرا . بل جعلت مبدايي وخطة حياتي هذه الكلمات الثلاث « قل كلمتك وامشِ » . فاننا اذا وقفنا لنسمع المداحين والهجائين الناطقين بالحجارة والناطقين بالازهار نصرف عما وجدنا من اجله من بث المبادئ الحرة والتعاليم السديدة في الناس الى ما يعرقل سعينا ويقعد بهمتنا ويكدر صفاء افكارنا ويعودنا مقاتلة الناس لا تهذيبهم ولذلك جعلت شعاري « قل كلمتك وامشِ » .

هذا هو مبدأي هذه خطة حياتي الكتابية . وهذه نصيحتي

---

(١) خطبة القيت في مرسح زهرة سوريا ببيروت اول ليلة فيها مثلت رواية هملت .

لاخواني الادباء اجمعين . وبناء عَلَى ذلك ساقول كلمة في رواية هذه الليلة كي لا أخرجكم من الموضوع الجميل الذي انتم فيه . وانني لا استحسن قطعاً الخطابة في المواضيع السياسية والاصلاحية في مثل هذه المواقف الادبية . فانها تصرف افكاركم عما جئتم من اجله هذه الليلة وتقطع سلسلة الخيال التي تنقلكم من المكان الذي انتم فيه الى مكان الرواية وزمانها . وهذه من شروط الاتقان في التمثيل . فان الممثل الذي لا ينسيني وانا جالس في تلك الكرسي امام هذا المرسح كوني في بيروت وفي الجيل العشرين ، الممثل الذي لا ينقلني بمغناطيس صناعته الى الدانيمارك في هذه الرواية مثلاً — لا شاهد هناك مليكها واميرها ورجالها واشباحها يقطعون الحياة ويذيبونها — لا يكون قد احسن اوليات هذه الفن .

يسرني جداً ان ارى روايات نابغة المراسح بل نابغة العالم تمثل في سوريا . فان شكسبير من سائر الشعراء كجبل الارز من سائر جبال لبنان . ورواية هملت من روايات شكسبير كضهر القضيب من جبل الارز . بل شكسبير هو امير شعراء العالم ورواية هملت هي اميرة روايات شكسبير . وكم قام بعده من المقلدين من الانكليز والالمان والافرنسيس فاجادوا في طريقتهم ولكنهم لم يشقوا غيوم مؤلف هذه الرواية الفريدة . ومن مميزات هذا الشاعر العظيم انه ما ترك عاطفة من العواطف البشرية كلها دقيقة كانت اوغليظة واطئة اوسامية

رافية او وحشية ظاهرة اوغامضة حتى البسها من شعره سربالاً شفافاً جميلاً واستخرج منها حكمة سامية جليلة · فان ذكرنا الحب نرى في « روميو وجوليت » ارقه واشرفه واسماه وفي « ترولس و كريسيدا » احطه واكرهه وادناه · وان ذكرنا الغيرة يدهشنا بل يخجلنا تمثيله اياها في رواية « قصة من قصص الشتاء » بصورة خبيثة صفراء خالية من الوان الانعطاف والسماحة والحشمة · ويعجبنا بل يسحرنا في رواية « أوتلو » الشهيرة تلك الرواية التي تستنشق الغيرة فيها انقى هواء البحار والجبال · واننا لنرى ان ذاك الشهم الزنجي « أوتلو » ما فادى « بدرة » اتمن من قبيلة كلها » الا كرها وفي سبيل عرضه وشرفه · وذلك بعد ان افرغ الخائن يعقوب كل سمه في قلب من اخلص له الوداد · وان ذكرنا الانتقام نشاهده في افظع واوحش هيئاته في « تيتوس اندرانيكوس » وفي اشرف واسمى مظاهره في رواية الليلة · وفي هذه المقارنة تظهر عظمة الشاعر الذي يسقط الى اعمق اغوار الحياة فيستخرج منها درر الشعر والفلسفة و يرتقي الى اعلى السماكين فيجيئنا بكواكب من الحكمة السامية والحقيقة الالهية ·

هذه ست روايات ذكرتها موجزاً لا مثل مقدرة الشاعر واتساع نطاق افكاره وتصوراته وفلسفته وشعوره · فمن « كريسيدا » الى « جولييت » ومن « اندوانيكوس » الى « هملت » ومن « بوليكسين » الى « اوتلو » ننتقل دفعة واحدة من جحيم الحب الى سمائه ومن

ادغال الانتقام الى ذرواته ومن اكواخ الغيرة الى قصورها . وقد تجتمع اسمى مظاهر هذه العواطف كلها في دور هملت لذلك هي اعظم الروايات التي تمثل على مراسح اليوم . هي رواية منقطعة النظير فريدة في بابها وجلبابها . ففيها الضمير والفلسفة يمتزجان فيتماوجان بين التردد والاقدام . وفيها الدقايق والحقايق تسيل حباً فتتلون غضباً فتهيج انتقاماً وفيها من الشعر والتصور والفصاحة ما لا يجتمع مثله في رواية واحدة لغيره من الشعراء . وفيها وهذا اهم ما فيها للممثلين، غوامض اطوار هملت وشذوذاته . فان دور هملت للممثلين هو كالنور للفراشة . وندر في اوروبا واميركا من لم يحرق جنحيه من الممثلين الشهيرين في باديء امره مع هملت . ولتتأكدوا اهمية هذه الرواية في عالمي الشعر والتمثيل اقول ان من مائة ممثل في انكلترا واميركا لا يحسن تمثيل هذا الدور العظيم اكثر من عشرة ممثلين . وكل واحد من هولاء يمثل الدور بطريقة تختلف عن طريقة سواه . وذلك لان المولف اكثر فيه من اوابد الفلسفة وغوامض الحكمة واسرار المعاني البديعة ما يحتمل التخريجات والتأويلات العديدة . لاقول هذا لاثبط من عزم هؤلاء الشبان النشيطين فانني اكبر همتهم واثني على اقدامهم وارجو الاَّ يقفوا في درس هذه الصناعة الجليلة واتقانها عند حد تصفيق الناس واستحسانهم فقد يضر المديح بالشاعر والممثل اكثر من نقد الناقدين وتحامل المتعنتين .

لا شك ان بينكم كثيرين ممن سافروا الى اوروبا وشاهدوا فيها تمثيل الروايات ولكنني لا اظن ان احداً منكم دخل العالم الكائن وراء الستار هناك فان المرسح بادواته وعجلاته وانواره واخشابه واسراره وممثليه وجدران الورق والقماش فيه لعالم آخر لمن يتسنى له الدخول اليه .

اذكر لما كنت امثل دوراً صغيراً في هذه الرواية مع احد الممثلين الكبار في الولايات المتحدة انني دهشت اول ليلة من امر الشبح في الرواية وكيفية ظهوره . فلما قال « برناردو » (ها هو ها هو) رأيت من كان يمثل هذا الدور يتخطى تحت الارض اي تحت المرسح فسألت احد الممثلين وهلاً يخرج لتشاهده الناس فقال بل هم يشاهدونه الان فقلت وكيف ذلك ؟ فاشار اذ ذاك الى مرآة طويلة في مؤخر المرسح وقال — ترى الذي يمثل دور الروح واقفاً تحت المرسح امام المرآة فينعكس خياله فيها فيخيل للناظرين انه شبح حقيقي واقف بين الارض والسماء واذا تكلم فصوته من تحت المرسح اقرب الى حقيقة حاله فانه اشبه بصوت خارج من القبر . وعند ما ينتهي من كلامه لا يخرج كالاحياء ماشياً بل يتحول الممثل من امام المرآة فيخيل للناس انه طار في الفضاء كما لو كان شبحاً حقيقياً . الى هذا الحد من الاتقان والتفنن والى ما فوقه ترتقي هذه الصناعة هناك .

وقد جاء في منذ اسابيع مجلة انكليزية موضوعة للتمثيل

والممثلين قرأت فيهـا ان ابن السيدة إلن تري وهي كسارا برنارعند الانكليز طبع رواية هملت عَلَى حدة في خمس مجلدات ضخمة طبعة فريدة في بابها فنشر فيها صور اشهر من اجاد في تمثيل هذا الدور من الممثلين من ايام شكسبير حتى يومنا . ورسوم الثياب ووصفها في زمن هملت مع المواعين والاشياء التي تستخدم عَلَى المرسح اثناء التمثيل . وفيها ايضاً وصف المشاهد والمناظر وحركات الممثلين وسكناتهم كلها وكيفية القائهم مسنودة الى تقاليد تكاد تكون مقدسة عند عشاق هذا الفن وارباب وتباع النسخة من هذه الطبعة من رواية هملت بخمسة عشر ذهباً انكليزياً فتأملوا !

اذكر هذه لتقدروا هذه الرواية حق قدرها فانكم لو جئتم هذا المكان فسمعتموها تمثل اربعين وخمسين مرة لتجلى لكم كل مرة شيء جديد من رائع حكمتها وبديع معانيها وجميل التصور فيها .

وقد يخطر في بال البعض منكم ان كيف تكون يا ترى تاثيرات مثل هـذا المرسح ومثل هـولاء الممثلين في نفس من مثل عَلَى مراسح اميركا وشاهد هذا الفن في ارقى مظاهره وعرف شيئاً من اسرار المرسح وخباياه . اما الممثلون فانني وان كنت لا استصوب هجومهم دفعة واحدة عَلَى روايات شكسبير وبالاخص اعظمها أكبر همتهم كما قلت واثني عَلَى نشاطهم وارجو ان يتوفقوا في سعيهم واجتهادهم ودرسهم المتواصل الى شيء راق من هذا الفن . واما المرسح او الملهى او الملعب او التياتر

او بالحري هذه الاخشاب المسندة التي تدعى تياترو فانها تذكرني بايام شكسبير لما كان يمثل بنفسه ادواراً في رواياته ·

فان فن التمثيل هناك ولد في مثل هذا المهد الحقير فلا عيب ولا عار في ذلك ·

ولا بأس في ذكر شيء من سيرة نشوء هذا النابغة العظيم فان فيها عبرة لمن اعتبر · في ايامه اي منذ ثلاثماية سنة كانت لوندرا شبيهة بيروت اليوم من حيث اسواقها وابنيتها وملاهيها ·

ولم يكن فيها عربات ومركبات بل كانت شوارعها دائماً كشوارع مدينتنا يوم الاعتصاب فكان الناس يجيئون التياترو راكبين الخيل فاقتضى لذلك وجود اولاد امام الباب يستلمون هذه الجياد فيحفظونها لاصحابها الى ان تنتهي الرواية · ووليم شكسبير ايها السادة كان من هؤلاء الغلمان · ولكنه عمل عمله بنباهة وامانة واخلاص حتى اصبح بعد قليل زعيم الساسة وسيدهم · فكان الناس عند وصولهم الى التياترو لا ينادون الا شكسبير فيجيئهم هذا ويجيئهم ذاك قائلاً انا ياسيدي من رجال شكسبير · وكذلك ترى الرجل العظيم ناجحاً فائزاً مقدماً في اول عمل باشره · نراه ناجحاً لانه اتقن عمله وثابر على الصدق والامانة فيه · ومن دور السائس ارتقى الى المرسح فاخذ يمثل الادوار الصغيرة الى ان استيقظت في قلبه ربة الشعر فطفق ينظم الروايات ويمثل فيها حتى آخر ايامه ·

(٦)

قلت لكم ان لوندرا منذ ثلاثمايـة سنة كانت من بعض الاوجه مثل بيروت وكان فن التمثيل فيها كما هو اليوم عندنا وكانت التياترو خاصة شكسبير وشركائه شبيهة بهذه فالحالة الاجتماعية التي كتب فيها شكسبير اعظم رواياته كانت كحالتنا اليوم منحطة جداً عن تصوراته وافكاره وتشويقات نفسه .

فهل كتب الشاعر ما يلائم طبائع قومه واميالهم في تلك الايام ؟ هل راعى خواطر شعب لوندرا منذ ثلاثمائة سنة ؟ فانه لو فعل ذلك لما كنا نقرأ رواياته ونمثلها اليوم . بل هو الف هذه الروايات لكل جيل ولكل زمان . ألف رواياته والحقيقة آخذة بضميره وربة الشعر تملي على فؤاده والحكمة تنير زوايا قلبه ونفسه . ألف رواياته ولسان حاله يقول — ان لم يقدرها ابناء اليوم حق قدرها فسيفعل ان شاء الله ابناء المستقبل . وهذه من نبوءات الشعراء . فالنابغة ياسادتي يتقن أي عمل اتاه بشرط ان يكون قلبه مائلاً الى ذاك العمل . ومن مميزات شكسبير في صعوده من احقر الاشغال الى المهنة التي تتصل بالالهة اسبابها انه كان يفرغ قلبه ودماغه في قالب عمله وان حياة هذا النابغة لشبيهة بتمثال حي لما جاء في رواياته فانه ارتقى السلم من اوطى الدرجات حتى اعلاها ووقف هنيهة في كل منها ليفكر بالحكمة التي فوقها والحكمة التي تحتها .

فاتقان العمل اذاً ان كان في مسح الاحذية او في النظم او في

التمثيل هو اساس كل ما يدوم طويلاً من الصنائع والفنون . ونحن الشرقيين مفتقرون جداً الى الثبات الذى يتغذى منه الاتقان فاننا لا نتقن شيئاً ولا نثبت في شيء . بل ترانا نيئس قبل ان نتم عملنا فنضرب به الحائط وظننا اننا صورنا عَلَى الحائط صورة جميلة . نتطلب تمام الاستحسان والتقريظ لا عمالنا وقد تركناها وراءنا ناقصة . فعسانا اذا ان نتمثل بشيء من حياة هذا النابغة الانكليزي الذي اتقن عمله سائساً . واتقنه ممثلاً . واتقنه شاعراً .

حول المساواة [1]

سيداتي وسادتي

عندما كتبت هذه الرواية الصغيرة لم يخطر في بالي امر تمثيلها. وقد الفتها لغرضين غرض ادبي وغرض سياسي فالغرض الادبي ظاهر للألباء من خلال الخيال والغرض السياسي نقطة محوره. ومهما كان من امر الرواية فما هي الاَّ وقفة امام الباب الذي لا بد ان يدخله الادباء بعد حين. فقد عفنا الروايات المترجمة التي قلما تنطبق عَلَى حالنا وقد حان لنا ان نضع تاريخ الامم الشرقية وبالاخص تاريخنا عَلَى المرسح ليقتفي الناس اثار اجدادنا الحسنة ويتحايدوا منها السيئة. ومن العجز ان نتهافت عَلَى موائد الافرنج وعندنا في تواريخنا العربية وحياتنا الاجتماعية من الحوادث والعبر ما كان يكفي ساردو وروستان وابسن خمسين عاماً لو تفرغوا لدرسها ووضعها في قالب التمثيل. وما روايتي هذه سوى وقفة امام باب هذا الموضوع كما قلت. وبما انني اشتغل اليوم في نظم بعض حوادث تاريخ العرب لتمثل في انكلترا او اميركا اود لو اهتدى بعض اخواني من الادباء الى شيء من هذه الحوادث المهمة فيفرغونها في قالب تمثيلي عَلَى طريقة قريبة بقدر امكاننا من

(١) القيت اثناء تمثيل رواية السجناء او عبد الحميد في الاتيني للمرة الاولى في المرسح الجديد ببيروت سنة ١٩٠٩.

كلات هذا الفن ٠

اما الغاية السياسية من الرواية فلا شك انها ظهرت لاكثركم وتدبرتموها وما عبد الحميد فيها سوى واسطة لاظهار الحقيقة المؤلمة التي طالما اشغلت المفكرين ٠

من الالفاظ الساحرة التي تتدهور عَلَى السنة الخطباء في هذه الايام لفظة المساواة ٠ والمساواة ايضاً هي محور الفكرة السياسية في الرواية ٠ ولكن بين ما ارتئيه في هذا الموضوع وما يرتئيه غيري بوناً شاسعاً ٠ فالمساواة لفظة طالما تحمس لها الشعوب في ما مضى من التاريخ ووجدت فيها الامم خلاصها الى حين ٠ وان كان في تاريخ الرومان او الفرنسيس او الاميركان فان هي الافقرة مرت فاضرمت في الشعوب هوساً ابعدهم عن الحقائق الطبيعية والاجتماعية واعادهم اليها بعد حين ٠ والتاريخ شاهد عَلَى هذا ٠ عَلَى ان الوقت لا يسمح الآن في استطلاع شواهده ولولا ذلك لكنت ابين لكم كيف خابت امال الرومان والفرنسيس والاميركان في عقيدة زال شغفهم بها بعد ان وضعوها في حيز العمل

عَلَى انني اصرح امامكم الان انني لست من المعتقدين بان الناس ولدوا متساوين كما جاء في دستور الولايات المتحدة ٠ فالناس لا يولدون متساوين لا في القوى العقلية ولا الجسدية ولا الروحية ٠ وهذه حقيقة لا حاجة للاسهاب فيها ٠ وانما الناس متساوون اسماً امام الشرع

اما فعلاً فهم في البلاد التي تدعى مهد المساواة كاخوانهم في البلاد التي كانت في الماضي قبرها . فالاميركي والعثمـاني شبيهان من هذا القبيل . وفي الامتين ذو النفوذ يخنق المساواة بنفوذه وذو المال بماله وذو السيادة بسيادته وذو العقل بعقله وذو القوة بقوته ومهما تحمسنا وبالغنا في القول ينبغي ان تكون الحقيقة محجتنا في كل حال

والحقيقة ياسادتي هي ان المساواة لا حقيقة لها في البشر اليوم . والذي يمكننا ان نصل اليه بعد طويل الجهاد والثبات في مضمار الارتقاء هو ان يعرف كل امرىء مركزه ويجازى كل امرىء على عمله . وهذه في نظري هي المساواة الحقيقية . ليجـازَ كل امرىء عَلَى عمله بعدل وانصاف وانا الكفيل بان الناس لا تحلم بعدئذٍ بالمساواة . اذا ما الفائدة للفاعل ياترى من معرفته انه وسيده متساويـان اذا كان سيده هذا لا يجازي عمله بعدل وانصاف ! . المساواة الحقيقية اذا هي ان يجازى كل عَلَى عمله . ان يجازى المجرم عَلَى جرمه . والفاعل عَلَى عرق جبينه . والعالم عَلَى علمه . والذكي عَلَى ذكائه الذي يظهر في اعماله . ورب الفنون عَلَى عرائس صناعته والشاعر عَلَى نفائس شعره . فالمجرم اذا كان من المتشردين او من السلاطين ينبغي ان يكون في نظر الشرع واحداً وفي نظر القضـاة واحداً وفي نظر السجان واحداً . اي ان الحقيقة تطلب شريعة واحدة وميزاناً للعدل واحداً وسجناً واحداً لمن ساوت بينهم الجرائم والاثام . ولا فرق بين الصعلوك من هذه

الوجهة والامير و بين الفقير والغني . اذكر لما كنت في الولايات المتحدة ان المحكمة العليا حكمت عَلَى احد ارباب الاحتكار هناك بالحبس ستة اشهر لخرقه نظام الحكومة المختص بالشركات الاحتكارية فزج في السجن كبقية المذنبين ولكنه لم يعش هناك كما عاش اخوانه السجناء . فقد اختصته الحكومة بثلاث غرف فرشها من ماله بالطنافس والرياش . وأذنت لاحد المطاعم ان يقدم له طعامه كل يوم في الاوقات المعينة وكان اصحابه وعماله يزورونه كل يوم كما لو كان في بيته او في مكتبه . فما قولكم بهذا العدل في ارض تدعى مهد الحرية والمساواة . افلا ترون ان حال عبد الحميد اليوم شبيه نوعاً بحال ملك الاحتكار الاميركي ! فالمال الذي تدفعه الامة اليوم لاعاشة السلطان المخلوع هو ما يحق لكل المجرمين في البلاد ان يطالبوها بجزء منه . هذا ما يدعونه المساواة امام الشريعة وهذه هي المحجة التي لم نزل بعيدين عنها . اما المساواة في الهيئة الاجتماعية فالعقدة فيها اشد وامنع . وان عقدةً عقدها الله لا يحلها الاَّ هو . ليعمل كل منا عمله باخلاص واتقان . ليعرف كل منا مركزه . ليجازي كل منا عماله عَلَى اعمالهم بعدل وانصاف . لنكن احراراً بمعنى الكلمة فنصبح متساوين فضلاً واباءة في عين الله . — قلت في خطابي في زحله كلمة عن الذين يتلبسون بالحرية و يفاخرون الناس بانهم من الاحرار وذكرت عَلَى سبيل المجاز بيَّاع البصل او بالحري من لا يعرف

كنه الحرية والمساواة واصبح يجتمع اليوم والاحرار الحقيقيين في نادٍ واحد . فقام احد الخطباء يعترض على تحقيري الشعب وعبثي بعقيدة المساواة المقدسة . وهؤلاء الناس يحاولون تعزيز عقيدة لم يعززها الله وما عززتها الطبيعة . فقال كيف لا يحق لبياع البصل مثلاً ان يكون من الاحرار و كيف لا يحق له ان يجتمع وسيده الامير في نادٍ واحد . لا ياسادتي اذا كان بياع البصل او الامير نفسه يبيع حريته ببصلة فهو من العبيد الذين لا يحررهم الا الله . اذا ظلَّ المرء حراً ما زالت حريته لا تضر بمصلحته او بمنصبه او بنفوذه فلا الدستور ولا الثورة ولا المصلحون يستطيعون ان يرفعوا عن نفسه سلاسل العبودية .

الشعب والسياسيون [1]

ايها السادة

ان لهذه المدينة مزية طبيعية جميلة ما رأيت مثلها في مدن العالم الكبرى التي زرتها واقمت فيها . وهذه المزية المبهجة تظهر في هذا الفصل من السنة في اجمل معانيها فتسير مع النسيم في الليل فتنسي السائر حفر الاسواق واوحالها . نعم ان اجمل ما في بيروت جنائنها وإن نفحات ازهار الجنائن تسكرني وتحزنني معاً . فقد طالما سألت نفسي وانا سائر ليلاً في شوارع المدينة — متى ياترى تنتشر مثل هذه الروائح الشذية في ادابنا وادياننا واخلاقنا ومبادىء زعمائنا . متى ياترى تصير ارض سوريا صافية كسمائها . متى ياترى تصير قلوب ابناء سوريا نقية كهوائها . متى ياترى تصير حكومة هذه البلاد صالحة كانبيائها ؟ سؤالات يطرحها الرجاء تَلَى اليأس بل النور عَلَى الظلمة . سؤالات طالما رددتها نفسي فكنت كمن يقلب جذوة في الرماد كلما حركتها صغر حجمها وامست اخيراً رماداً

سؤالات اذا سألها علم العالمين بجهلهم يجيب عليها جهل من ادعى العرفان . سؤالات اذا سألتها ازهار الحب والتساهل والاخاء نبت حولها شوك التعصب والنزاع والخصومات .

(١) من خطبة في الشعب وزعمائه

ولكنني لا ايأس من كل ما هو جار اليوم . انا لا اتشاءم باخبار الاستانة المكدرة . فان الامة هي كالام ساعة الولادة . الامة الجديدة كالطفل تولد بالعذاب والالام .

اعذروني ايها السادة اذا خالفت هذه الليلة رأيي في امر الخطابة خلال الفصول . فانني وان قلت بابطال هذه العادة اعلم جيداً ان ذلك غير ممكن قبل ان يصير عندنا دار خصوصية الاجتماعات العمومية .

واذا كان الخلط بين الخطابة والتمثيل اليوم لازماً فالاشارة الى ان الطلاق كافل سلامة الاثنين لازمة ايضاً .

و بعد هذا الاعتذار ماذا عساني اقول .

اذا قلت كلمة في الحالة الحاضرة اخشى ان تظهروا استحسانكم باطلاق الرصاص ولذلك لا اقولها . فان الصحافيين كثيرون وكلهم في القول يتاجرون . بل كلهم من الاماجد الكرام كما يقول انطونيوس في جنازة القيصر . والذي يقوله هؤلاء الاحرار الافاضل لا يتجاسر ان يقوله هذا الفقير . الذي يقوله المسدس والخنجر لا يقوله اليوم القلم والمنبر . الذي تقوله الحماسة الوطنية لا تردده دائماً الحكمة . الذي يقوله انصار الامة لا يقوله انصار الحقيقة . واني اؤكد لكم ايها السادة ان لسان الحال اليوم افصح من لسان الاتحاد ولسان التقهقر اطول من لسان الترقي و بلاء بابل في السنتها . ولكن هذه البلبلة لا تدوم . وسينطق غداً

لسان آخر هو لسان القوة والحكمة فيردد صدى كلماته لسان الحال ولسان الاتحاد ولسان الترقي ولسان التقهقر ايضاً وان غداً لناظره قريب

واما الآن فحرمة للانسانية ارى من الواجب ان نستلفت انظار زعماء الفوضيين في اوروبا الى حالتنا المبهجة المفيدة فيبعثوا بوفد من قبلهم الى بيروت ليتعلموا فيها كيف تكون الفوضى ولا بأس بالفوضى اذا علمتنا شيئاً واحداً وهو انه لا يثبت في العالم والناس الا الانقلاب.

لا بأس بالفوضى اذا تعلم الشعب في مدرستها ان يتقي زعماءه واسياده. فان الزعماء الذين يغرون الشعب اليوم عَلَى الصحافة حباً بالامة يغرونه غداً عَلَى الامة حباً بالصحافة. عفواً سادتي قد جاملت من حيث لا اقصد المجاملة. فان الزعماء السياسيين يثيرون خواطر الشعب لا حباً بالصحافة ولا حباً بالامة بل حباً بانفسهم الكريمة وبمطامعهم السياسية الشريفة. فاتقِ ايها الشعب الزعماء ولا تكون في ايديهم آلة صماء. واتقوا ايها الزعماء الشعب فانكم اذا اغريتموه اليوم عَلَى احد زملائكم يقوم غداً من يغريه عليكم. لا يثبت الاَّ الانقلاب. اذكروا هذا ايها الثابتون في التقلب . . . . .

وقد قيل ان صوت الله في صوت الجماعات وكم هو ياترى عدد العثمانيين الذين لا يقفون مع الواقف ولا يتزلفون الى القوي. فالشعب اليوم واقف. الشعب اليوم قوي. ولكن الحق يقف فوق كل واقف. الحق اقوى من كل قوة بشرية.

فاذا قال السياسيون ان صوت الله في صوت الشعب يقولون ذلك يوم يكون الشعب خادماً مآربهم السياسية . ويوم ينقلب الشعب تنقلب لا شك الآية . يوم تصرخ الجماعات فلتسقط الصحافة الحرة تقول الحكومة المسلولة ان هذا لصوت الله . ولا تكاد تنتهي من تهليلها حتى تصرخ الجماعات فلتسقط الحكومة ! فيقول اذا ذاك الحكام انه لصوت ابليس . والحقيقة ايها السادة ان ابليس بريء من هذا الشعب وان الله بعيد عنه . الحق يقال ان صوت الشعب هو صوت ابي براقش لا صوت ابليس ولا صوت الله . الحق يقال ان ابا براقش هو معبود الشعب ومعبود السياسيين .

تبارك الشعب وتبارك صبغاته السياسية . تبارك السياسيون وتبارك نزواتهم الوطنية .

في وصف بيروت

ايها البيروتيون

اقمت في هذه البلاد بلادنا ست سنوات ولم استطع قبل الآن ان اقول في بيروت كلمة حق يرضاها قلب شُغف بحب بلاده ولا ينكرها عقل شغف بحب الحقيقة . نظرت الى هذه المدينة بعين رأت مدن اوروبا واميركا فاستصغرتها وندبت حظها ثم نظرت اليها بعينٍ شاهدت غيرها من مدن سوريا فاحببتها واكبرت شأنها . وانا الآن ناظر اليها بالعينين فاصفها وانصفها . بيروت ام البلاد السورية وأمة البلاد السورية . اميرة المدن الاسيوية واجيرة المدن الاسيوية . بيروت حسنة من حسنات التمدن وآفة من آفاته . بيروت لؤلؤة شرقية في صيغة من النحاس غربية . هي خلخال في رجل سلطانة المشرق عند الصباح . وأسوار في معصم ربة المغرب عند الغروب . هي درة في اوحال ثمن فوقها الكهرباء هي مرجانة عَلَى ساحلٍ اختلط تبره برماله ولجينه باوحاله . ساحل النغولة مهد أم المدن السورية وعرشها . فم الاتون بيروت . وافق النور بيروت . ومطلع الظلمة بيروت . عروس الحرية هي وعجوز الحرية . يوماً تتهادى تحت علم الوطن عفة وكبراً ويوماً تتوكأ عَلَى عصاها كيداً ومكراً . يوماً تلبس الرعاة العتاة

اكليلاً من الازهار · تصعّر يوماً خدها للظالم وامام سدته تعفّر يوماً وجهها · بيروت منبر الدستور ومشنقته · بيروت حسناء النظام و بيروت صخّابة الفوضى ·

مدينة المدن السورية بيروت · منبت الياسمين والقُلّام · مغرس الورد والشوكران · القُرّاص فيها يرفع رأسه عزةً تحت ازاهر الليمون · والعُليّق يسرح ويمرح في ظلال النخيل مدينة الدماء مدينة المدن · مدينة الخلسة والرجاسة · اخت اورشليم · روحها ئنّ في الازقة · نفسها تحشرج في المجاري · قلبها يغرد في البساتين · عينها تدمع في دوائر الحكومة · جسمها يذوب في الموبقات · وعقلها يدق على سندان التفريق في المدارس · بيروت احدى وصيفات باريس · هي قمر ينعكس فيه نور المغرب فيضيء المشرق وتنعكس فيه ايضاً ظلمة الغرب فتزيد الشرق ظلاماً · بيروت منبت العلوم ومغرس الخرافات · هي حقل خصب التربة تزرع فيه اوروبا قمحها وزؤانها ووردها وقُلّامها ومع ذلك نراها سائرة الى الامام ساهرة صابرة · اذا اقبلت سوريا بيروت امامها وان ادبرت بيروت وراءها · اذا كانت اليوم كاذار من السنة تتراوح في رعدها وبرقها بين الظلمة والنور غداً تصير كايار بل كتموز · كايار بازهارها · كتموز بثمارها · اذا كانت اليوم اسيرة شياطين التفريق غداً تصبح ربة الالفة والاخاء · اذا كانت اليوم عرش التعصب الديني فهي غداً قبره ·

مدينة المدن السورية بيروت واثمها مثل مجدها كلاهما عظيم ·
اذا بكت هاج بكاؤها بكاء الامة · اذا غرّدت رددت انغامها بلابل
حلب وشحاريرِ الشام وحساسين لبنان وحمام الجليل · اذا وردت
بحيرة الاصلاح « ورد الفراتَ زئيرُهـا والنيلا » · واذا افسدت
افسدت بناتها في السواحل وعلَى شواطىء العاصي والاولى والاردن
وبردى · كلمة باطل تنطق بها بيروت تمسي حجة في دمشق كلمة حق
نصدع بها بيروت تروي غليل القرى الظمآنة وتبعث في مدن
السواحل والسهول روح الجهاد ·

أم المدن السورية هي وعجوز المدن السورية · تعلم بناتها الفضيلة
يوماً ويومـاً تعلمهن الرذيلة · تحمل اليهن نوراً وتحمل اليهن سماً ·
اثمها مثل مجدها كلاهما عظيم واعظم من الاثنين واجب فرضه الله
علَى الامهات · احسني القدوة يابيروت يحسن بناتك الاقتداء · في
المروج والجبال وفي السواحل والسهول بناتك يستقين من ينابيع
علمك وادبك · من مدارسك من صحافتك من منابرك من مطابعك ·
فصفي مياهاً تسقينها بناتك · اخفري السُبُل · صوني المناهل · تعهدي
المسارب · اقطعي يد كل اثيم يشتغل اليوم في تعكيرها او تخريبها او
تسميمها اقطعي الايادي التي تحمل اليها سراً فضول الاديان واوحال
التعصب واوساخ سخافات الادب والسياسة · طهري ينابيعك · ارحمي
بنيك وبناتك ·

أشهد ان لا نور ولا دخان ولا وحول في سوريا اليوم غير ما كان مصدره بيروت . وأشهد ان بيروت وجه سوريا وان الهو تنتوتي في هذا الزمان يغسل وجهه . بيروت قلب سوريا . والعلم يقضي بان يكون العقل كالقلب والجسم نظيفاً نقياً ؟ ولكن المدينة التي تدعى درة في تاج آل عثمان هي درة في اوحال وغبار تئن فوقها وتحتها الكهرباء ؟ وتبصّ حولها حباحب الادباء .

اوحال واقذار وغبار في اسواق المدينة . وفي آدابها وفي سياستها وفي اديانها . ودرة العلم ودرة الدين ودرة تاج آل عثمان في هذه الاوحال والاقذار غائصات ضائعات . وماذا يزيل الاوحال والاقذار والغبار . لا الصحافة ولا قرض البلدية ولا قصائد الشعراء ولا كلماتي تزيلها . هذه الاقذار من فضول الاعصر والاجيال ولا يزيلها ابداً سرمداً غير التربية الحقة والتهذيب الصحيح تربية اساسها الشجاعة والحمية والصدق والنظافة وتهذيب اساسه النزاهة والامانة والاقدام وحب العدل والوطن متى تأصلت هذه الفضائل في الرعاة وفي الرعية وفي السائدين والمسودين تصطلح جادات المدينة وتستقيم جادات الادب والدين والسياسة . اصلحوا الحياة تصلحوا الحكومة . اصلحوا الحياة تصلحوا المدينة .

في لبنان (١)

اخواني · ابناء وطني ·

اذا كان في حضوري حفلة هذه الجمعية ما يسركم وفي كلماتي ما يفيدكم فانتم مديونون بذلك لرسول الجمعية اليّ · جاءني هذا الرسول الاسبوع الماضي فذكرني بعد ان قص قصته بمخبري الجرائد الاميركية · باولئك الشبان الاقوياء الذين يتسقطون حتى من السماء الاخبار ، وينالون بغياتهم بالجد والثبات ولو حالت دونها الاقدار · ورسول الجمعية نال بغيته مني بالجد والثبات · طلبني في محلات عديدة بالمدينة فما وجدني · سأل عني بعض الاصحاب فثبطوا من همته · علم اني ساخطب في بيروت خطبتي الاخيرة واتأهب للسفر وما كان ذلك ليوقفه عن سعيه · عض على نواجزه وراح وجاء باحثاً طالباً حتى لقيني فحاصرني واستولى عليّ · اعجبني من الشاب نشاطه وجده وثباته · فاحببت ان انوه بها في هذا المقام · وحبذا هذه المزايا الحميدة في شبابنا بل في كهولنا وفي نسائنا · حبذا العزم في الاعمال والثبات في الاعمال والاخلاص في الاعمال · فلا التربية في بيوتنا نحن السوريين ولا التهذيب في مدارسنا يغرس فينا مثل هذه

(١) خطبة القيت في جمعية الاجتهاد الروحي في برمانا لبنان في ١٤ ايار سنة ١٩١٠

الاخلاق الطيبة . مثل هذا العزم والجد والاقدام . الشاب الذي نوهت به من متخرجي الكلية والمزايا التي اعجب بها انما هي من محاسن الاخلاق الاميركية . وحبذا لو تخلقنا بمثل هذه الاخلاق فنأخذ عن اصحابنا الاميركان والانكليز اماثيل العزم والجد والاقدام ونترك لهم عبادة المال والتكالب في سبيل الاثراء .

فكم من خوار هلوع اذا قامت في وجهه عقبة واحدة يعرض عن غرضه ويعود الى خموله خائباً . وكم من رسول لفساد في خلقه وضعف في عزيمته يخدع مرسله ويخونه . وكم من مأمور يركب الى غايته مطية الغش والتلبيس ويطلي عقد الامور بالاكاذيب ويدور حول العقبات مثل كديش الناعورة فلا هو بذلل العقبات ولا هي تعززه . الاخلاص في الاعمال والامانة في الاعمال والجد والثبات في الاعمال هذا ما انصح به لاخواني ابناء وطني

فالجد يدني كل امر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق

وان من يمد يده الى السماء راغباً عازماً جاداً متشوقاً لتدنو منه كواكب السماء واقمارها .

ولكن الطبيعة تنفر من الالحاح ونواميسها تكره العجلة . وقلما نرى نحن السوريين ما لا يعاكس الطبيعة ونظام الاشياء . اذا شاقنا امر طلبناه كالاطفال ضاجين ملحين صارخين صاخبين مئات السنين نريد ان يحشرها الله من اجلنا في برهة صغيرة . نريد ان ينير من

اجانا الشمس في الليل والقمر في النهار . نريد ان يصلح شؤوننا ونحن اما نائمون واما صاخبون . ولا الصخب وايم الله ولا النوم . لا العويل والفوضى ولا التلبط والقنوط تصلح الشؤون .

اكعكة تريد يابني . اصبر تنلها . واما هذا التلبط منك فلا يفيد . وهذا الصراخ لا ينفعك . بمثل هذ الكلام تخاطب الام ابنها اللجوج والامة بنيها . نريد في لبنان تهذيباً وحرية وعمراناً . نريد في لبنان اصلاحاً . وأيم الله لا نريد في لبنان الاَّ الوظائف . اقول وحق ما اقول ان بلاء لبنان وفساد حاله امن مصلحيه . مصيبة الجبل اولئك الذين يصيحون في الاودية حباً باستماع صدى اصواتهم . اولئك الذين يضربون عَلَى وتر الاصلاح حباً بالاشتهار او خدمة لمآرب احد المفسدين الكبار . اولئك الذين يصطادون بشبكة التمويه والتغرير الدينار . بلية لبنان اولئك الذين يزحفون عَلَى بيت الدين باسم الدستور فينصبون في باب السراي مشنقة الدستور . اولئك الذين يصطبغون بصبغة الاحرار واذ يتبوؤن كراسي السيادة يولون للحرية الادبار . اولئك الذين يصطبغون بصبغة الماسون يوماً و يوماً بصبغة المارونية فلا ماسونيين يعرفون ولا بكر كبين . مصيبة هذا الجبل العزيز في امثال اولئك البنائين المحترمين الذين يناهضون الاكليروس يوماً و يوماً يتزلفون اليه ليسلبوه النفوذ والسيادة . كنا في الماضي نقول ان بلأنا من الاكليروس . واما اليوم فيا ما احيلى الاكليروس الى جانب

هؤلاء الذوات المصلحين . مسكين الاكليروس اللبناني ؟ صرخة واحدة اقعدته وكأني بالبنائين والمصلحين يصرخون اليوم في وجهه قائلين : اشلح تربح . هذه حال الاكليروس اليوم وحال المصلحين .

بليتنا يا اسيادي من هذه الاحزاب . هؤلاء الزعماء والسياسيين العتق منهم والجدد . ما اكثر المصلحين فينا وما اقل الصالحين . ما اكثر الواعظين وما اقل المتعظين . عودوا الى بيوتكم ايها الناس فالزموها . عودوا الى انفسكم فاصلحوها . افسدتم باصلاحكم البلاد اهلكتم بسياستكم الناس اقول ولااخشى لومة لائم ان كل ساسة لبنان الموقرين سواء في الضلال والفساد . وما اشرنا مرة الى احد معجبين ممن اشتهروا بغير الضلال والفساد وكان عند رجائنا فيه . قلنا في هذا الرئيس قولاً جميلاً كذبه باعماله . مدحنا الزعماء الوطنيين فجبقوا في الطحين ما كدنا نقول في هذا النائب ما شاء الله حتى اضطرنا ان نقول انا لله . كلهم في الفساد والضلال سواء عودوا الى بيوتكم ايها الزعماء الاعزاء . الى حقولكم . الى املاككم . فتعهدوها بالتربية . اصلحوها اصلحكم الله . بارت ارض لبنان من اشتغال اصحابها عنها بالسياسة . غاضت مياه لبنان من اهمال الغابات فيه والاحراج . وسيذهب لبنان ضحية اصلاح المصلحين . ويلهم مصلحين . يهملون ارضهم وعيالهم واملاكهم ليصلحوا حكومة لبنان . لله درهم ما اشد غيرتهم على لبنان

اقول وحق ما اقول لو سكت الزعماء والمصلحون العتق منهم

والجدد وعادوا الى بيوتهم يحترفون لهم حرفة شريفة لاصطلحت عاجلاً شؤون لبنان السياسة واما شؤونه الاجتماعية والعمرانية فلا يصلحها غير المدارس الراقية والتربية الحقيقية . لا يصلح حالنا ادبياً ودينياً غير المدارس الاعدادية العلمانية الوطنية والتربية الاميركية الحقيقية اما الاصلاح السياسي فلا ينفع كثيراً بل لا ينفع قطعاً في مثل احوالنا اليوم . وهاك ما قاله طومس كَرْلَيْل في هذا الصدد . انا قارئ ما عربته من سديد حكمة هذا الفيلسوف العظيم .

« قد قيل مراراً وينبغي ان يقال ايضاً تكراراً ان كل اصلاح غير الاصلاح الادبي لا يجدي نفعاً . فالاصلاح السياسي مع شدة الحاجة اليه يحصر فعله في استئصال الاعشاب البرية كالشوكران القبيح السام والنباتات المشوكة التي يكثر نموها وتقل فائدتها ولكن الارض وقد اصبحت بعد ذلك بوراً تقبل البذور الكريمة كما تقبل ما قد يكون اخبث واضر مما استئصل منها . اما الاصلاح الادبي فهل يتحقق ياترى رجاؤنا فيه ان لم يزداد يوماً فيوماً عدد الرجال الصالحين فينا . اولئك الذين ترسلهم العناية الكريمة ليبثوا روح الصلاح في الناس ليزرعوه كما تزرع الشجرة الحية بذورها ؟ فالرجل الصالح انما هو قوة سريعة حية مثمرة وكذلك في كل زمان ومكان يكون . ونفوذه اذا تدبرناه لا يقاس لان اعماله لا تموت . هي ابدية لانها بنت الابدية . وقد تتحول فتنمو وتنتشر في اشكال جديدة ولكن جوهرها الحي المحيي

هو واحد . فيا ايها الصارخ من خبث الزمان ولؤمه القائل ان ديوجن في يومنا يحتاج الى مصباحين في رابعة النهار اعلم ان لا سلطة لك على الزمان . وليس لك ان تصلح البشر — ان تنقذ عالماً منغمساً في الغش والفجور والنفاق . وانما كتب لك ان تصلح رجلاً واحداً فيه واعطيت لذلك قوة عظيمة مطلقة فانقذ هذا الرجل . اصلحه قوّم أوده ان في اهتمامك هذا شيئاً بل اشياء تذكر . وحياتك واعمالك لا تكون بعدئذٍ باطلة .»

وكلنا هذا الرجل . وكلنا نستطيع ان نصلحه اذا سعينا في هذا وكنا ثابتين في سعينا صادقين . اما الاصلاح السياسي فهو يتقي الارض ويحصبها فقط . والاصلاح الادبي الذاتي يعطينا بذوراً صالحة نزرع منها هذه الارض المنتخبة الطيبة . واما اذا حصبناها وتقبناها وكانت بذرونا رديئة فاسدة يجيء كل اصلاح سياسي شراً من الآخر . وبأسف اخبركم ان ما في جراب بذارنا اليوم غير بذور الحنظل والقرقفان والعوسج والقراص . فاذا كانت لنا غيرة على بلادنا وكان في قلبنا حب لارضنا حقيقي نأبى ان نتعبها ونهلكها بالاصلاحات السياسية العقيمة . لنسعَ في تنقية البذور قبل تنقية الارض . اطرحوا الى النار جراب السياسة وما فيه غيره آسفين وخذوا لكم جراباً جديداً تملأونه من بذور النفس المصلحة الجديدة فقد أعطي كل منا كما قال كرليل قوة عظيمة مطلقة ليصلح نفسه وكل منا يستطيع الى ذلك سبيلاً

اذا سعى قليلاً ·

ونصيحتي لاخواني اللبنانيين لابناء وطني المحبوب ان يبتعدوا عن السياسة ويقتربوا من الحقول · ان فلاحاً في كرمه وراء محراثه لا شرف من كثيرين من ذوات لبنان · ان صانعاً في معمله لاطهر ذيلاً وانزه نفساً من ساسة لبنان · ان حائكاً في نوله لا سلم قلباً من مصلحي لبنان · — جبالنا المقدسة ! ايهجر بنوك اطلال السكينة فيك ليتلوثوا بأوساخ السياسة واوحالها ؟ ايهملون ارضك فتصير بوراً واحراجك فتصير صخوراً حباً بمنصب في الحكومة يذل النفس و يفسد الحياة ؟ الى الحقول ايها السياسيون الى الحقول · بارت اراضي جبالنا من الاهمال · تصخرت احراج جبالنا من الاهمال · غاضت مياه جبالنا من الاهمال · اتشقون في السياسة اخواني والمحراث ينشدكم نشيد الهناء والحبور ؟ أتمرغون في اوحال الوظائف والارض تحن اليكم حنين الام الى اولادها اتستذلون وتستضعفون وتستعبدون في دوائر السياسة والحقول تدعوكم اليها لتلبسكم تاج الاستقلال · لتعيد اليكم شرف الرجال · لتمنحكم بحرية الفكر والعمل والمقال ؟ الى الحقول اخواني · الى الحقول · ليرعَ كل منا خويصة نفسه، ليشتغل كل منا عن اصلاح الناس باصلاح شؤونه · ليشعهد ارضه واملاكه بالحراثة والتربية فيصطلح عندئذٍ لبنان و يصطلح شعب لبنان · وتصطلح حكومة لبنان ·

التساهل الديني

خطبة

ألقيت في احتفال جمعية الشبان المارونيين

في نويرك

ليلة ٩ شباط سنة ١٩٠٠

وطبعت في مطبعة الهدى هنالك

تنبيه

هذه اول خطبة القيتها في لغتي وقد انتشرت في سوريا ومصر واميركا وقرظتها الجرائد والمجلات هنا وهنالك . لذلك احببت ان ابقي عبارتها عَلَى ما كانت عليه في الطبعة الاولى .

مقدمة الطبعة الاولى

قد طبعت هذه الخطبة لاعتقادي اننا بحاجة كلية الى التساهل الديني فأملي ان تصادف من المتساهلين استحساناً ومن المتعصبين قبولاً تكون نتيجته الارتياح والاستحسان عَلَى ما ارجو فيزول اذ ذاك التعصب ويسود التساهل وتبرز بعد ذلك امتنا السورية الى عالم الوجود قائمة عَلَى صخرة لا تقوى عليها نيران الجحيم .

نويورك في الشهر الخامس من سنة ١٩٠١

مقدمة الطبعة الثانية

وهذه عشر سنوات مضت والتساهل الديني اي هذه الخطبة لم تزل من الادوية الناجعة . دليل على ان داء التعصب الدفين لم يزل متأصلا في الصدر . وقد قال لي احد كبار الاتحاديين ان الجمعية تود لو انتشرت هذه الخطبة في كل اقطار المملكة . فلتتكرم الجمعية اذاً وترجمها الى التركية . ابدلوا « الامة السورية » في الخطبة بالامة العثمانية ولا تخشوا اللوم والتثريب . فان عناصر هذه الدولة كلها كالعنصر الذي عالجته . وان ما نئن منه نحن المسيحيين لاشد وطأة عند اخواننا المسلمين أفيسقمنا التعصب و يجهز علينا التمويه ؟ اتقوا الله ايها الناس . فقد صاح بكم الاحرار الاصفياء عودوا الى كتبكم ظناً منهم انكم تعودوا الى الحسن السمح السامي من آياتها . نخاب ظنهم . لذلك اقول ارفعوا اعلام الوطن ولا تعودوا الى كتبكم في غير المعابد لانكم تعودتم ان تسرعوا الى ما خط فيها من آيات فتفسرونها بما لا يقتضيه حالنا اليوم بل لا يجيزه . عودوا اخواني الى ضميركم الى وجدانكم الى معقولكم الى حكمة موروثة فيكم . وساعدوا هذه الدولة الجديدة فتساعدكم . ساعدوها ايها الروساء والاسياد في بث روح التساهل الديني والجنسي في الناس . وسيف الله يرفع عليّ شرّ من سيف ارفعه على اخوان لي في الوطنية . وشرّ من الاثنين ايها العثمانيون سيف يرفع علينا أجمعين .

بيروت في ٦ نيسان سنة ١٩١٠

التساهل الديني

ايها السيدات والسادة .

لما علم بعض اصدقائي باني انتقيت موضوعاً دينياً القيه على مسامعكم في هذه الليلة الحافلة انتشر الخبر في جاليتنا السورية واخذ كل رجل يبني عليه العلالي والقصور و يستخرج النتائج و يقدر العواقب و يفسر الموضوع بحسب مبلغ ذوقه وادراكه وهواه وقد اتفق هولاء المفسرون في شيء واحد وهو اني ساتعرض للدين تعرضاً خبيثاً وهم ينوون توقيفي عن الخطابة لانهم للآن لم يألفوا حرية القول والانتقاد فعسى ان يصادفوا الفشل وخيبة الامل لانهم حكموا عليَّ قبل ان يسمعوا كلامي ويتدبروا براهيني وهذا شيء يناقض الشريعة والعدل و يأباه الرأي المستقيم والذوق السليم فالقاضي الذي يحكم على مجرم بالقتل قبل ان يسمع دفاعه يكون ظالماً مجرماً جاهلاً . فلا تحكموا قبل ان تسمعوا ولا تقصدوا الشرّ قبل ان تتبينوا شرًّا اكبر يستوجبه وقد يظن البعض ان البحث في الامور الدينية متعلق برؤساء الاديان فقط ومحرَّم على سواهم وهذا عين الضلال والغلط فالمرء لا يرى مساوئه ولا ينتقد الحرفة التي يتوقف عليها معاشه . ورؤساء الاديان لا يتكلمون عن الدين شيئاً مشيناً ومضراً به على مسامع الشعب ولو لم يكن منافياً العدل والاصلاح بل كل مباحثهم الفلسفية وكل اقوالهم العلمية هي مستنتجة من مقدمة تسبق كل بحث وكل تنقيب

يطبعونها في جنانهم قبل ان يقدموا عَلَى الكتابة والجدال وهي هذه : الدين تأييده واجب وتعزيزه اوجب واذا افسده الزمان ولوى فيه الالسنة بعض رؤساء الاديان فلا يعان الفساد للشعب فاذا كانت المقدمة عَلَى هذا المنوال فهل يرجى منهم انتقاد جهري يكشف للعلمانيين ما لا يظنونه موجوداً . ان ذلك لا يكون فالروساء لا يرجى منهم اصلاح جهاري في الدين اذ ان ذلك يضرّ بمصالحهم ويضعف سلطتهم و يسقط سيادتهم . واذا سألتموني لماذا تبحث وتتكلم في الدين وانت لست من رجاله فاجيبكم كما اجاب روسو الفيلسوف الافرنسي الشهير لما سئل عن تعرضه للبحث في السياسة وهو ليس اميراً ولا حاكماً قال : انا لست اميراً ولا حاكما ولكنني من اجل هذا كتبت فاني لو كنت اميراً او حاكما لما اضعت الزمان بكتابة ما ينبغي ان افعل بل كنت افعله وألزم السكوت . وانا لست قسيساً او مطرانا ومن اجل هذا اخطب بموضوع ديني فلو كنت قسيساً او مطرانا لاصلحت وحسنت واستغنيت عن الخطابة ولزمت السكوت فالبحث في اي موضوع كان محرم عَلَى الحيوانات المعجم فقط اما الناطقة العاقلة فمن حقوقها ان تخوض عباب اي موضوع شاءت .

ولكن الذي أوقعني في مثل بحر من الاضطراب هو الطلب الذي طلبته مني عمدة هذه الجمعية (جمعية الشبان المارونيين) كي اعدل عن الخطابة بهذا الموضوع تجنباً للشر وهرباً من العواقب الوخيمة حسب

زعمهم ولعمري لا ينجم عن البحث والتفتيش المصحوبين بالمعرفة والحكمة الا كل شيء مستحسن ومفيد . البحث امُّ الحقيقة . ماذا افعل اذن أأرمي نفسي في بحر البحث والتنقيب ام اسلم تسليما غير شرطي دون ان انبس ببنت شفة . من وجه لا اريد ان اخون ضميري واعوّد نفسي التردد فالشاعر يقول :

اذا كنت ذا رأي فكن فيه مقدماً

فان فساد الرأي ان تترددا

ومن وجه آخر اود لو راعيت خواطر اعضاء الجمعية التي انا عضو منها واجبت سؤلهم . فان تكلمت استاءوا وان لم اتكلم أستاءت الحقيقة وهذه هي الورطة التي وقع بها ذاك الخطيب المفوه اسكندر افندي العازار لما تكلم عن " الجرائد وجرائدنا " في مدينة بيروت فأخذ في البدء يسرد تاريخ الجرائد مبتدئاً بالصين ومنتهياً في اوربا ووقف يتبصر لما اتصل به البحث الى جرائدنا وحالتها في تلك المدينة . والموقف يستوجب كثرة التبصر اذ كانت تلك القاعة غاصة برجال الحكومة واصحاب الجرائد ونخبة الجواسيس وكلهم كانوا واقفين للخطيب بالمرصاد يتوقعون منه كلمة واحدة ضد الجرائد او المكتوبجي ليشوا به ويسعوا بتوقيفه وحبسه فبعد ان تبصر قليلا قال : جرائدنا ... احسن صبغة للشعر عند عيد عون .. جرائدنا ... احسن دواء لوجع الرأس عند ابي نحول . جرائدنا ... جرائدنا ... فنهض احد اصحاب الجرائد

في ذاك الثغر وقال له ،، ما معناك لم لا تتكلم ،، فاسكته الخطيب اذ قال: « الله يضيق عَلَى من يضيق »

اما نحن فلسنا في بيروت الآن ولسنا محاطين بالوالي والمكتوبجي والجواسيس ولا توجد فوق رؤوسنا ايدي رجال حكومة ظالمة جائرة مستبدة من شأنها الضغط عَلَى العقول وتوقيف كل من نطق بالحقيقة وصرح عن افكاره بحرية واخلاص . نحن في بلاد طرحت فنمت في ربوعها بزور الحرية منذ نشأتها نحن في جمهورية عظيمة يحق لكل من وطئ اراضيها المباركة ان يتكلم بحرية تامة بشرط ان لا يمس حرية غيره. وهذه الحكومة العادلة قد كفلت لشعبها الحرية بانواعها كافة: كحرية الاديان وحرية الصحافة و حرية الخطابة وحرية التعليم وحرية العمل ولعمر الحق هذا اكبر باعث لتقدمها السريع ونشأتها الغريبة . فما لنا اذا ومراعاة الخواطر عند البحث عما يعود باكبر الفوائد عَلَى السوريين في بلادهم وفي المهاجر ... موضوعي التساهل الديني أتريدون ان اتكلم (فجاء الجواب من الجمهور اخطب ! تكلم !)

أأتكلم ؟

تكلم . تكلم تكلم !

سأتكلم اذاً وعَلَى الله الاتكال .

موضوعي في هذه الليلة الحافلة متشعب الاطراف جليل الشأن جزيل الفوائد ذو اهمية تأثيرها في المجتمع الانساني لا يقاس ولا يحد .

هو الموضوع الذي انقسمت عليه الرجال في الاعصار الغابرة المتوسطة حين كان يدافع عنه كل المدافعة العلماء والفلاسفة والاحرار ومحبو البشر الابرار ويعارضهم كل المعارضة الرؤساء والامراء والملوك وكل من فضل قطعة معدن تدعى خطاءً تاجاً عَلَى ذلك الشيء الخفي السري الالهي الذي يسمى ضميراً

(تعريف التساهل)

التساهل هو التسامح بوجود ما لا يستصوب بتمامه [1] وهذا تحديد كلي اما الجزئي فهو اجازة العقائد الدينية والطقوس الطائفية التي تخالف الطقوس والعقائد المختصة بالدولة . وهذا تحديد لا يطابق حالتنا ولا يوافق الظروف الحاضرة فاليكم اذا تحديداً يأتي بالمراد:

(١) كل عقيدة وكل مذهب وكل تعليم لا تعبر صحته عند جميع الناس والشعوب فهو غير مستصوب بتمامه وان كان صواباً . الديانة المسيحية مثلاً هي غير مستصوبة بتمامها ليس عند الشعوب الغير المسيحيين فقط بل عند المسيحيين انفسهم فالمسيحي البروتستاني لا يستصوب المذهب الكاثوليكي بتمامه والعكس بالعكس وذات الحالة تعتور الشيع البروتستانية العديدة — والدين الاسلامي هو غير مستصوب بتمامه عند كل الناس حتى عند المسلمين انفسهم فان منهم الشيعيين والسنيين والصوفيين والمعتزلة والمجسمين وغيرهم من الشيع المتعددة . وكل من هذه الشيع لا تستصوب تعاليم الاخرى بتمامها . ولا يستصوب بتمامه الاَّ الحقائق الراهنة التي لا ينكر صحتها احد على الارض وهي ما كانت من طوق ادراك العقل لها فناموس الجاذبة مثلاً هو مستصوب بتمامه عند كل من عرفه واثنان واثنان تساوي اربعة لا ينكر احد صحتها ولا يوجد رجل على البسيطة له مسكة من العقل يقول لك ٢و٢ ٣ ولو قلنا : الخطان المتساويان لا ينحدان مهما ادمت مدهما فهو تعليم يقرّ بصحته كل من درس الهندسة او نحن قليلاً في القضية . هذي هي الحقائق الراهنة — حقائق رياضية قاطعة لا ينكرها احد وهي تستصوب بتمامها . والشيء الذي يستصوب بتمامه لا لزوم للتساهل به لان كل الناس تتآلف وتتفق بخصوصه

التساهل الديني هو الاعتبار والاحترام الواجب علينا اظهارهما نحو المذاهب المتمسك بهـا ابناء جنسنا ولو كانت هذه المذاهب مناقضة لمذاهبنا وتقاليدنا وطقوسنا عَلَى خط مستقيم

يجب علينا ان لا نمكن ما لا يستصوب بتمامه من ان يفرق بيننا ويشتت شملنا و يقسمنا على انفسنا

التساهل لا يكون في الامور الدينية فقط بل في كل المسائل التي تطرأ عَلَى عقول البشر و يعمل بها الكبار والصغار عدا ما يستصوب بتمامه ولا نستطيع ان ندخل هذا الباب دون ان نطرق باباً آخر فالتساهل نجم عن التعصب وهاتان الكلمتان ضدان وهما ثانوية من ثانويات الطبيعة كالنور والظلمة والفضيلة والرذيلة والخير والشر والعدل والظلم فلولا ذاك لما كان هذا . لولا الاول لما كان الثاني . فالتعصب اذاً ولد التساهل والتساهـل ولد السلام والسلام ولد النجاح والنجاح ولد السعادة مثلما ابراهيم ولد اسحق واسحق ولد يعقوب و يعقوب ولد يهوذا واخوته . فالسلسلة واحدة لكن الترقي يأخذ مجراه حسب سنة النشوء والارتقاء والتعصب يسبق في كل الاحوال ليستوجب التساهـل لان القضيب المستقيم يكون تقويمه اعوجاجاً .

ولكي يكون الشيء صريحاً والبرهان جلياً اجعل لكم تشبيهاً ثانياً . التساهل هو الابن والتعصب هو الاب ولحسن الطالع لم يوجد في العائلة البشرية برمتها اب وابن لم يتفقا ويتواليا في زمانهما قط الا

هذين الاثنين فالاب التعصب يكره الابن التساهل والابن لا يستطيع ان ينظر الاب فاستعرت بينهما نيران الفتن وحمي وطيس القتال في الاجيال المتوسطة التي يدعوها المؤرخون الاجيال المظلمة وكان الفوز احياناً لهذا واحياناً لذاك حتى دخل المتحاربون القرن التاسع عشر فاخذ الابن يفوز عَلَى الاب . اخذ التساهل ينتصر عَلَى التعصب واخيراً شقّ قلبه بخنجر العدل وفراه بسيف الرحمة . مات التعصب ولكن وا أسفاه كان موته الى حين اي ان روحه عند خروجها من جسمه الديني تقمصت بقوتها الاصلية بالجسم السياسي . خرجت من الجسم البشري ودخلت الجسم الحيواني . عوضاً عن التعصب الديني الذي سوّد صفحات التاريخ في الاجيال الغابرة قد ابتلينا بايامنا هذه بتعصب سياسي او دولي اذا شئتم لم نرَ له مثيلاً في تاريخ العالم بأسره . فما هذه الحروب التي تشهرها الدول الاوربية عَلَى الشعوب الحقيرة والقبائل الضعيفة الصغيرة الا نتيجة التعصب الدولي نتيجة الفكر الفاسد الذي تتمسك به الدول وتعمل بموجبه فانكلترا تعتقد نفسها اصلح من فرنسا وفرنسا ارفع واعظم من جرمانيا وجرمانيا اقوى واحسن من الاثنين الخ واذا راقبنا حركات الدول واطلعنا عَلَى اسرارها ودرسنا سياستها وكشفنا الحجاب عن خفاياها وتأملنا الحروب العديدة التي تهدم هيكل المجتمع الانساني وقفنا منذهلين مندهشين سائلين انفسنا السؤال المضحك — أنحن من الجيل التاسع عشر جيل التمدن والنور

جيل المبادىء الديموقراطية والاشتراكية والرحمة المسيحية ام نحن على باب القرن العشرين . اجل نحن من الجيل التاسع عشر ... قبل المسيح وليس بعده . وقد تميز هذا الجيل بالتعصب الدولي ولذلك دعوت خطابي التساهل الديني الناتج عن التعصب الديني لاميزه عن التساهل السياسي . اما المبدأ الاساسي لهما فهو واحد ولا يتغير منه سوى التكوين الخارج والاحوال الظاهرة .

ثم التساهل يكون اما من الدولة واما من الشعب واما ان يكون طوعاً واختياراً واما كرهاً وجبراً . اما التساهل الدولي الديني فهو يشمل الآن الدول الاوربية بمعاملاتها بعضها مع بعض ولكنه لا يشمل الشعوب التي يدعوها الاوربيون متوحشة فالدول لا تتساهل مع هؤلاء المساكين الضعفاء بل تتساهل بعضها مع بعض لانها نضطر الى ذلك وليس حباً بالمبدأ الشريف فكثيراً ما نراها تشهر الحروب على القبائل الضعيفة وتدعوها حروب الانجيل وذلك لكي يعتنق ،، البرابرة ،، الدين المسيحي كرهاً وجبراً . وهذا هو التعصب الدولي الديني هذي هي الاضطهادات التي كانت تمارسها الدول الاوربية المسيحية ضد بعضها والآن تمارسها ضد ،، البرابرة ،، كما تزعم والبرابرة قوم يشعرون و يريدون مثلنا . هذه هي حروب شارلمان واضطهادات الملكة حنة الانكليزية والملك كارلوس الافرنسي هذه هي مذبحة ليلة القديس برتلماوس فعوضاً عن حدوثها في باريز وفي

الجيل السابع عشر تحدث الآن في صحاريه افريقيا وفيافي امية وتلول السودان وفي آخر الجيل التاسع عشر . يا للعار ويا للشنار ! عبثاً يكتب العلمآء ويندّد المصلحون ويبحث الفلاسفة . عبثاً اتى السيد المسيح الى الارض لمثل هؤلآء الاقوام

اما بين الدول المسيحية بمعاملاتها مع بعضها فاسنا نرى للتعصب الديني اثر فصار الكاثوليكيون بأمن وسلام في الجزائر البريطانية والبروتستانيون يأمنون على انفسهم في اسبانيا وفرنسا وايطاليا واليهود لا خوف عليهم من الاخطار والطرد في اي بلاد حلوّها ما عدا الروسية وصرنا نرى في مجالس الامرآء الانكليزية اللوردة والنواب الكاثوليكيين واليهود وفي الدولة العثمانية نرى الموظفين على اختلاف نحلهم ومذاهبهم من المسلمين والمسيحيين والدروز فالتساهل اذاً في الدولة موجود غير انه بين الملل والشعوب المختلفة مفقود . لان الكاثوليكيين في هذه البلاد الحرة كطائفة لا يحبون البروتستانيين والبروتستانيون يكرهون الكاثوليكيين وقس على ذلك في كل الامم لا سيما في الامة السورية فلو كان بوسعنا نحن السوريين كلنا لاضهد بعضنا بعضاً وشهرنا على بعضنا الحروب الدموية ولكن الدولة لا تساعدنا على الاضطهاد الديني وروؤسآء الاديان لا يستطيعون ذلك وحدهم ولعلهم لو استطاعوا لا يتردّدون .

عندنا نحن شيء اقبح من الاضطهاد واضر من الحروب عندنا

السياسة السرية والايدي الخفية والاعمال الباطنة الشيطانية فكل هذه المكرات تشير الى غرض واحد وهي اكبر باعث عَلَى ابتعادنا وانقسامنا عَلَى بعضنا وقيامنا ضد بعضنا . فالسياسة الخفية هذه اقبح من الاضطهاد لانا بالاضطهاد نستأصل دابر من خالفنا بالمذهب فلا يبقى لنا معاند مفاخر ولا عدو مكابر ولكن السياسة السرية تفسد القلوب وتقتل في الانسان كل عاطفة شريفة . السياسة هذه هي الجبن والضعف واللوم والخيانة والغش والنفاق والايدي التي لا تظهر مخالبها الاَّ في الظلمة الكالحة يدعو عليها بالكسر كل حر صادق وكل شجاع . هذه سياسة سيئة غايتها ووخيمة عاقبتها وابناء امة واحدة يبقون بسببها منقسمين منفردين عاجزين عن العمل مشمولين بالخمول ومكتنفين بالجهل فيتسلط عليهم شعب آخر او امة غريبة فيبقون اذلاء جبناء الى ما شاء ربك . هذه سياسة لا طائل تحتها ولا نجاح وراءها بل ان صاحبها يلقى الفشل ويتلى بخيبة الامل قبل ان تمتد نيران فتنته فتفضي بالامة الى البوار

ايها السوريون نحن امة لا يتجاوز عددها ثلاثة ملايين نفساً منهم مليون متشتت في اربعة اقطار المعمور فاذا وجد فينا خمسة عشر حزباً او ملة فماذا يا ترى تكون عاقبة شقاقنا وانقسامنا

الا يكفينا الضعف الذي يشملنا بكوننا امة صغيرة حقيرة حتى نبتلى ايضاً بضعف الانقسام وماذا تكون قوة كل حزب او كل طائفة اذا شرعت تعمل عملاً خطيراً يستغرق الوقت الطويل والسهر والكد

والاجتهاد و يستوجب تضحية المال والنفوس وخيرات البلاد

اي عمل قامت به هذه الطوائف الصغيرة وكانت فوائده اكثر من اضراره ؟

فلو كان عددنا مائة مليون لما ضرنا انقسام الاحزاب الى عشرين حزباً ولا خمسة عشر طائفة فعندئذٍ يكون الحزب قوياً واذا شرع يعمل عملاً او ينهض نهضة سياسية او ادبية كللها بالفوز والظفر . هذه الامة الاميريكية يبلغ عدد سكانها ما فوق الثمانين مليوناً ومع ذلك لا نرى فيها اكثر من خمسة احزاب سياسية واما الطوائف الدينية فكثيرة ولكن لا قوة ولا ذكر لها في الامور السياسية والوطنية والمدنية . قد سلبت منها سلطتها او بالحري قتلت بيدها ولذلك هي ضعيفة ذليلة . قد قالت الحكومة الجمهورية لهذه الطوائف الدينية ما معناه : — لكل دين حق البقاء ولا حق لدين ان يبيد ديناً آخر بالقوة الوحشية .

لكل دين حق البقاء ! افتكروا في ذلك وابقوا هذه الاية — في حافظتكم . ودولتنا العثمانية تنهج نفس المنهج فالمسلمون يتساهلون مع النصارى و يسمحون لهم بممارسة دينهم حسب طقوسهم وتقاليدهم وبما ان الانسان يجتهد ليستفيد من كل شيء انتجت الدول ولا سيما الدولة العثمانية نتيجة حسنة تأول الى سياستها بالراحة تعويضاً عن لذة الاضطهاد الوحشية فغدا التساهل ضرباً من السياسة الدولية بواسطتها تستميل الدولة الرؤساء والرؤساء قادة الشعب وسادته فتصبح البلاد بواسطة

هذه السياسة براحة وطاعة : — راحة لا تشكر ولا تراد وطاعة لا تحمد ولا تحد اني افضل الاضطراب والعذاب عَلَى هذه الراحة اني افضل الثورة عَلَى هذه الراحة الممقوتة : راحة الذل والخمول راحة الجهل والعبودية

وكانت قد اتخذت هذه الخطة الدولة الرومانية التي كانت تتساهل بوجود الاديان في الاجيال الاولى للمسيح . وقد وصف هذا التساهل المؤرخ الشهير غِبنْ بكلام وجيز مفيد فصيح قال : « ان انواع العبادات عَلَى اختلافها كانت سائدة في العالم الروماني وكان الشعب يعتقدها كلها صحيحة والفلاسفة يعتقدونها كلها خرافية والحكام رأوها كلها نافعة مفيدة » . هذا كلام فيلسوف ومؤرخ مدقق . افتكروا به وهكذا انتشر التساهل وجاب عَلَى الشعب ليس فقط السلام والراحة بل الائتلاف الديني والجامعة المدنية فالحاكم هنا رأى في الديانات المختلفة شيئًا مفيداً وقال في نفسه فلندعهم يختلفون ما زال اختلافهم يسبب غبطتنا وسعادتنا و يؤيد سلطتنا و يعظم شوكتنا و يرفع مجدنا

والدولة العثمانية تتساهل مع النصارى كي تبقيهم اذلاء شاكرين ولرؤسائهم مطيعين ولسلطتها خاضعين !

قد برهنت لكم كيف الدولة تتساهل مع النصارى ولا اظن احد منكم يشك في تساهل المسلمين معنا ولكن عجباً كيف ان النصارى لا يتساهلون مع بعضهم . الاجانب يتساهلون معنا ونحن لا نتساهل مع بعضنا ولا نخالط بعضنا ولا نواري اختلافاتنا عند مصلحة امتنا ولا

نتناسى ضغائننا عند محبة وطننا ونجاحه ولربما قال بعض اللاهوتيين: كيف نتساهل مع من لا صحة لدينهم ولا حق في معتقدهم فاقول: ان التساهل مبني عَلَى التناقض والخلاف في صحة من ادعى الصحة وبوحي من ادعى الوحي ولو لم يكن ذلك لما تساهلت الحكومة مع الطوائف المخالفة لمذهبها لان الغاية القصوى من غايات الحكومة المتعددة هي ان تحامي عن كل مبدأ صحيح وتكفل لكل رجل حرية القول والفعل اذ لم تمس حرية غيره . فلو تاكدت الحكومة ان الدين الفلاني هو الدين الصحيح لما كانت تساهلت مع بقية الاديان ولا اجازت ممارسة دين يخالف هذا الدين الصحيح الا لغاية سياسية كما ذكرت ولكن لما كان الخلاف سائداً والتناقض شائعاً والحكومة المدنية تهتم بسياستنا وكل من روساء الاديان يدعي صحة دينه ضاع صواب الشاعر في ضوضاء اقوالهم فانشد قائلا

"في اللاذقية ضجة ما بين احمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمأذنة يصيح
كل يعظم دينه يا ليت شعري ما الصحيح"

الله لا يفضل امة عَلَى امة ولا طائفة عَلَى طائفة الله لم يصطف له في الارض شعباً خاصاً من حيث انه ذرية لها حق الانتماء الى اختيار الله لها دون غيرها وما يقرأ في التوراة من تفضيل الاسرائيليين عَلَى غيرهم فلكون عبادة الاصنام والمنحوتات وسائر المخلوقات هي من خرافات الدين فلو تركها قوم من المغضوب عليهم كما في التوراة واستساروا

بحسب الناموس الطبيعي لكانوا كالاسرائليين الذين استلموا الوصايا اذ
الوصايا العشر كلها طبيعية يفهم ضرورتها العقل المتنور و يغلط من يفهم
اختيار الله للاسرائيليين انه اختارهم ليعضدهم ويهديهم دون غيرهم فلو
كان هذا هو المفهوم لبقيت عجائبه فيهم بعد مجيء المسيح ايضاً . ولكن
عدل الله ارفع من ان يحصر خلاصه بذرية دون غيرها ولذلك قال في
الانجيل الطاهر اذهبوا و بشروا كل الامم . ان من سار حسب الشرائع
الطبيعية فعمل الخير وابتعد عن الشر كما يرشده عقله ولم يتوصل الى
معرفة الدين الحقيقي فانه لا يهلك لان الله رؤوف ورأفته لا منتهى لها
ولذلك اقول مع محمد (صلعم) ما الناس الا امة واحدة . هذه آية منزلة
وهي عين الحكمة التي اوحاها الله لاوليائه . ما الناس الا امة واحدة .
افتكروا فيها . انها لآية فلسفية سامية وما الدين التوحيدي الا دين
واحد فكلنا نتحد بارب وكلنا نعبد الهاً واحداً

قلت ان التساهل مبني عَلَى الخلاف وادعاء الحق اللذين قد يكونان
اوصلا الشبطيقيين الى الشك في كل شيء فقالوا عن كل امر "لا ندري"
وهم اللاادرية المسخور بهم لانهم يقولون لا ندري عما هو حقيقة مدركة
لا لانهم يقرون بقصورهم عن ادراك مسائل شتى وحقائق فوق العقل
ففي مثل هذه الحال تفتخر العلماء والحكماء بقولهم لا ندري جواباً عن
المسائل التي تفوق مدار كهم والكنوه الالهة التي يعجز عن تحديدها العقل
البشري فلمَ نتعصب ولمَ نستبد ما زلنا نتذبذب من ضعفنا عن البحث

في امور دينية كثيرة لم يصل اليها . العقل من قال لا ادري جواباً عن مسألة لا علم له بها فقد برهن عن صحة عقله وسلامة ذوقه وحسن رأيه وعمق حكمته وثاقب فطنته

وقول القائل لا ادري كما قال العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي خير من ان يقال له اخطأت وقد عد ذلك من جملة مآثر ذوي العلم وادلة كماله فيهم حتى ان السيوطي عقد باباً في كتاب من مؤلفاته في من سئل من العلماء عن شيء وقال لا ادري فذكر عدة من مشاهيرهم كالاصمعي وابن دريد والاخفش وابي حاتم وغيرهم من اهل هذه الطبقة . قال الزعفراني: كنت يوماً بحضرة ابي العباس الثعلب فسئل عن شيء فقال لا ادري فقال له بعض من حضر اتقول لا ادري واليك تضرب كبار الابل واليك الرحلة من كل بلد : فقال لو كان لامك تمر بقدر لا ادري لاستغنت . وسئل الشعبي عن مسألة فقال لا ادري فقيل له فبأي شيء تأخذ رزق السلطان فقال: لاقول فيما لا ادري لاادري . ويقرب من ذلك ما حكاه بعض علماء العصر من الفرنسيس قال : ان احدى خواتين الاشراف تصدت يوماً لاحد مشاهير العلماء في مجلس حافل فقالت له: امطر يكون بعد الهلال ام صحو : فقال لا ادري . قالت اذاً ما علة اتصال الغيث في هذا العام قال هذا مما لا نعلمه . قالت اتظن سكان المشتري يكونون عَلَى خلقنا قال ايتها السيدة اني لا اعلم شيئاً عن ذلك قالت يا عجباً فلم يتبحر المرء في العلم اذاً قال ليقول احياناً انني لا اعلم شيئاً .

فلنتساهل اذاً في الدين اذ اننا لا ندري والذي يدعي المعرفة هو هو الذي لا يدري بانه لا يدري بل يخبط في الامور خبط عشواء . فليبق كل على دينه اذا دله عقله على صحته بعد التنور الكافي والترفع عن الاهواء ولا ينتظرن احد رؤية دين غير مستصوب بتمامه كما يرى الحقائق الرياضية والعلمية مثلاً مما هو مستصوب بتمامه

ولتجمعنا الوطنية اذا فرقنا الدين والله لا يريد التفريق

لا تأخذوا كلامي على غير مأخذه ولا تحملوه على غير محمله وتقذفوا عليّ لحق ظاهر بكلمة فتقولوا واسفاه على من لا يعرف الدين الصحيح فان قلتم ذلك فانا انشد معكم قائلاً اسفاً على العالم بأسره ما اكثر الضلال فيه . واصغوا اذا شئتم لاقص عليكم رؤيا رأيتها ذات ليلة وكنت قبل ذهابي الى الفراش اترصد النجوم والكواكب واستطلع طلعة البدر تحدجني السماء بعينها الزرقاء واتأمل في ما رصعتها به يد القدير من الدراري الزاهرة كالمصابيح الباهرة . حدث لي ذلك لما كنت في جبل لبنان الجبل العزيز الذي كثرت فيه الخرافات وتعددت بين سكانه البسطاء المذاهب والديانات . الجبل الذي ترى في اكثر جهاته الشمامسة والكنائس والاديرة والقلانس . الجبل الذي ابتزت خيراته الكثيرة رؤسا الدين والدنيا وكثرت فيه خيرات الرهبانيات العديدة وضاعت بين كيس هذا وجراب ذاك وملكت ارزاقه الرهبانيات العديدة الوطنية والاجنبية وفي مقدمتها الرهبانية اليسوعية .

كنت في تلك الليلة اتأمل في الكواكب والبدر والثريا ودرب التبان التي تدعى ايضاً نهر المجرة وقد شبهتها بدرب التساهل عَلَى الارض لانها بيضاء نقية تسري بهـا النجوم في مناطقها لا تلتطم فهن مؤتلفات مفترقات لا تتساقط منها الشهب ولا تتنافر اجرامها في دورانها ٠

فلكثرة تأملي في الخالق والعزة الالهية في تلك الليلة البهية حلمت باني – صعدت الى السماء حياً في مركبة من نار – ولما دخلت تلك الجنة الالهية التي يعجز عن وصفها بيان الانسان رأيت هناك عرشاً مرتفعاً عظيماً ينبهر النظر منه لشدة تألقه ولمعانه ٠ ورأيت امام ذلك العرش اربعة رجال منتصبين ممتثلين امام الديان العظيم كل منهم يرشق الآخر بنظرة الغضب والبغض فسألت احد الملائكة عنهم فاجابني قائلاً

ان هؤلاء هم ممثلو اديان العالم في السماء فهذا سفير المسيحية وذاك سفير الاسلام وهـذا سفير البوذية وذاك سفير اليهودية فقلت وماذا يبتغون من العزة الالهية ٠ فقال قد اقلقوا راحة الملائكة وسكان هذه الديار بخصوماتهم واختلافاتهم المتواصلة وجاءوا الآن يستغيثون رب السماوات والارض ٠ و بعد ان تشاغبوا وتشاكسوا واوشك ان يفضي بهم الامر الى القتال نظر الديان العظيم اليهم برأفة وحنان وقال – كلكم يا ابناءي صادقون ـ كلكم صادقون ٠

قلت في بدء خطابي يجب علينا ان لا نجيز ما لا يستصوب بتمامه

ان يفرق بيننا ويشتت شملنا ويقسمنا عَلَى انفسنا كوننا امة ضعيفة صغيرة نحتاج الى التناصر والتعاون غاية الاحتياج ولم اقل ذلك الا بعد ان رأيت كيف اخذ الدين منا كل مأخذ فنخلطه بكل اشغالنا ونتخذه حجة بكل اعمالنا فالتجارة عندنا تجارة دينية والجمعيات جمعيات دينية والنزل (اللوكندات) نزل دينية والعتال عتال ديني وقس عَلَى ذلك وهذا الذي يبعث بنا الى الانقسام الذي يسببه التعصب الديني الذميم .

فلنتناسَ الديانة في التجارة ولننبذ التجارة في الاجتماعات السياسية والادبية ولنسجد لربنا ولنمجده (اذا كان لنا رب غير المال) مفترقين في المعابد والكنائس فقط اذ انها شيدت لهذه الغاية واني لاعجب من التناقض الذي يخالط اعمالنا وعقائدنا فمن وجه نقول ان الدين هبط من وراء الغيوم وهو مقدس ومن وجه آخر نستخدم الدين لتنفيذ مآربنا الدنيئة فنسلب منه القداسة وننزع عنه الاحترام بادخالنا اياه الدوائر المدنية من تجارية وسياسية وادبية .

هل اوحي الدين ليقينا من الفاقة ويكفل لنا المسرة واللذة في هذا العالم

هل اوحي الدين لنتخذه عضداً لنا بتحقيق امانينا الدنيئة وابتغاء الاشياء الزمنية التي لا حدّ لها

هل اوحي الدين ليساعدنا عَلَى الجشع والطمع والتحامل عَلَى ابناء جنسنا والازدراء بهم

هل أوحي الدين ليكون سبباً اولاً للخصام والشقاق والقتال

هل اوحي الدين لتتسلح به فئة من الناس ضد فئة وتستخدمه كسيف تسله على كل من لا يقرّ لها بالسلطة الوهمية

هل اوحي الدين لتأسيس الدواوين التفتيشية التي تألفت في رومية واسبانيا والتي ارعبت العالم بظلمها واستبدادها وجرائمها الفظيعة

هل وجد الدين لبعضهم وسيلة لافساد الهيئة البشرية

هل وجد الدين كي يستخدمه الرؤساء آلة نافعة لتنفيذ مآربهم الخصوصية وغاياتهم الشخصية

هل وجد الدين كي يتعصب به خدمة الأديان ويستأثروا بالسلطة المسلوبة فيظلموا العباد ويضطهدوا من خالفهم في الرأي ويحتقروا من هو اعظم منهم علماً وفلسفة وعقلاً

هل وجد الدين كي نفسده ونصلحه ونغيره ونقلبه بطناً لظهر . كلا ثم كلا ثم كلا .

لو نظر الله عزّ وجل كما ينظر البشر الى نتيجة وحيه لما كان تعذب وتنازل ليكلم موسى وعيسى ومحمداً صلواته عليهم جميعاً . ولو نظر ايضاً الى ان عاقبة الدين الذي انزله ستكون الاضطهاد والطرد والحروب والشقاق والخصومة لكان ابقاه عنده في السماء ولكن الله . . . . . الله اعلم .

الدين اما موحى واما غير موحى اما مقدس واما غير مقدس

فاذا كان موحى ومقدساً فلا يحق لنا ان نتخذه واسطة لتحسين اشغالنا التجارية وتنفيذ غاياتنا الشخصية فنلحق بامتنا الضرر الجسيم اذ اننا نكون حجر عثرة في سبيل الجامعة التي يجب ان تجمعنا كسوريين ونحن بحاجة كلية الى الجامعة الآن قلت واقول ذلك مراراً واما اذا كان الدين غير موحى وغير مقدس فارى من وجه الحكمة ان لا نتمسك الا بالجيد منه وننبذ الباقي ظهرياً نبذ النواة ولكن الدين مقدس ولذلك يقدم له الشعب الاحترام ومنه ما قدسته العوائد التي مكنها الزمان وثبتتها الممارسة وكفى بذلك قداسة تفرض علينا الاحترام والتوقير والاعتبار

لماذا اذاً نستخف بالدين ونتخذه كالعوبة نلتهي بها في الشوارع والحوانيت . نحن باخراجنا الدين من الكنائس لغاية عالية نزله ونجدف عليه . ومن التعصب الممقوت ان نميز كل حانوت وكل بيت تجارة وكل ادارة او كل جمعية بدين مخصوص فنقول هذا التاجر ماروني وذاك الطبيب ارثوذكسي وهذا الصحافي كاثوليكي وما شاكل ذلك . ما هذه الحالة التي وصلنا اليها . أ ينقصنا شيء الا ان نضيف الى اسمائنا اسماء طوائفنا ونقول زيد الماروني وعمر الارثوذكسي ومحمد المسلم . فتشوا معي لاريكم كيف تنقسم تجارنا وجرائدنا ونزلنا واطباؤنا وجمعياتنا . اولاً عندنا التجار المارونيون والتجار الارثوذكسيون والتجار الكاثوليكيون والتجار البروتستانيون .

واي من هولاء التجار المستقيمين يبيع سلعه وسبحه ودبابيسه لقديسينا المكرمين . أيتعامل التاجر الارثوذكسي مع مار متري ومار نقولا . ايتعامل صديقنا الماروني مع ابينا مار مارون . وعندنا الجرائد المارونية والجرائد الكاثوليكية والجرائد الارثوذكسية وعندنا المطاعم المارونية والمطاعم الارثوذكسية والمطاعم الكاثوليكية والمطاعم البروتستانية واي منهم نزل طعامها من السماء وهل يريد القديسون ان نخدمهم بالكبه والهريسه والمجدره . وعندنا الجمعيات الخيرية المارونية والارثوذكسية والكاثوليكية وما ضرهم لو كانت كلها جمعية واحدة — جمعية خيرية سورية .

ونارٌ ان نفخت بها اضاءت ولكن انت تنفخ في رماد
لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

وهذه الحالة تعتور كل اعمالنا واشغالنا وحرفنا

متى تزول الشقاقات الدينية ويداس التعصب تحت نعال المدنية متى نؤلف جمعية التساهل ونبني كنيسة التساهل ونشيد مدرسة التساهل ونؤسس جريدة التساهل ونفتح محل التساهل ولوكندة التساهل وتصير اعمالنا كلها تساهلاً بتساهل . اي متى تشملنا هذه الحالة السعيدة

انا الآن اقترح على اصحاب جريدتنا العربية في الثغر خصوصاً وفي العالم العربي عموماً اذا كان صوتي هذا الضعيف يصل اليهم ان

ينشروا عَلَى صفحات جرائدهم الغراء اعلاناً باحرف ضخمة كبيرة عن التساهل الديني وانه يعطي بلا ثمن ومن اراد ان يقتنيه ويعمل به فليطرق باب ضميره فهو البائع وهو الشاري هو الواهب وهو الموهوب ولو كنت ذا قدرة مالية لنشرت هذا الاعلان بَلَى نفقتي فيسدني الحساب الله يوم الغنيمة : يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً · فلنتساهل اذا · فانشر اعلان التساهل

التساهل ايها الشيوخ الاجلاء · التساهل ايها الشبان الادباء · التساهل ايها الصحافيون والاطباء · التساهل ايها التجار والرؤساء · التساهل ايها السوريون الاحباء · التساهل ! لو كان لي الف لسان ولو تكلمت من الان الى يوم الدين لما عيبت من تكرار وترديد هذه اللفظة العذبة السهلة اللطيفة · لفظة كرهتها الاجيال المتوسطة وكلف بها الجيل التاسع عشر · لفظة عززتها الجمهورية في هذا الجيل · لفظة انفتحت لها قلوب المتمدنين المخلصين لابناء جنسهم وتأهلت بها الضمائر الحرة والعقول الصحيحة · لفظة طيب شذاها يملاء الفضاء وذكاء عرفها ينعش الصدور · هي احسن واظرف والطف وابدع وامتن واجمل وارفع وامهل لفظة وجدت في معاجم اللغة

التساهل هو اساس التمدن الحديث وحجر زاوية الجامعة المدنية

التساهل شدد عزم الاحرار فبرزت من عقولهم اسمى الافكار

التساهل اوجد الترقي والتقدم في كل فروع العلم والدين والفلسفة

(١٨)

التساهل أيد سلطة الضمير ومحق السلطة التي لم ينزل الله بها من سلطان

التساهل اعطى كل امرىء حقه فتمتع به ومارسه بحرية واستقلال

التساهل وضع حداً للاضطهادات الفظيعة وكسر السيف الذي استخدمته الدول لاستئصال شأفة من خالفها بالمذهب

التساهل اطفأ بنفسه الفوي النار التي اضرمها الاكليروس لحرب اليهود والكفار

التساهل جعل كل رجل صحيح العقل والجسم اهلاً للوظائف في الدولة واهلاً للانتخاب

التساهل قوّض عرش التعصب وبدّد حجافل الجور والعسف الدينية

التساهل قال للكنيسة انت سلطانة وقال للانسان ايضاً انت بذاتك سلطان وكل له حدود واينما وجدت الحدود كانت الحقوق واصبح الامر خارجاً عنها ظلماً والانهاء جوراً

التساهل هو اللين والرفق والمسامحة وهو الحلم والسلام والحكمة

التساهل يحسم الاختلاف ويمهد سبل الائتلاف

التساهل يزيد الانسان غبطة وسعادة ونجاحاً في الحياة الدنيا ولا يضيره في الاخرة

التساهل هو الطريق الوحيد الذي من تحته تجري الانهار وعن يمينه ويساره الاشجار · طريق يدر لبناً وعسلاً · طريق مستوٍ مستقيم لا

يميل بنا عن روض السماء

التساهل هو الدواء لكل داء ادبي اوديني او سياسي اوعلمي

التساهل اصيل لا تنكره التوراة ولا الانجيل ولا القرآن ولتأكيد ذلك نذكر بعض الايات الانجيلية والقرآنية

„ من لطمك عَلَى خدك الايمن فحول له الايسر ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فدع له رداءك ايضاً ومن سخرك ميلاً فسر معه اثنين (متى ٥ و ٤٠ و ٤١) ان الله لا يحابي بالوجوه فكل رجل من اي امة كان يصنع الخير ويكره الشر فهو مقبول عند الله « بطرس »

افعلوا بالغير ما تريدون ان يفعله الغير بكم او كما قالها كنفوشيوس الذي عاش قبل المسيح بار بعمائة سنة „ لا تفعلوا بالغير مالا تريدون ان يفعله الغير بكم „ . وهذه الآية هي منزلة . هذه الآية الذهبية الفلسفية هي كل الدين وكل الادب وكل الشريعة وكل العدل وكل الفضيلة

ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (سورة البقرة)

من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (سورة هود)

من اسلم وجهه لله وهو محسن . ما قال وهو ماروني او ارثوذكسي

او مسيحي او يهودي او محمدي . قال من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ما اجمل هذه الآية وما اشرف تلك الآية الذهبية التي مر ذكرها ان هاتين الآيتين عظيمتان الواحدة منهما من الانجيل والثانية من القرآن . انهما منزلتان ذهبيتان فلسفيتان . اني ابيعكم كل الكتب المقدسة بهاتين الآيتين

ادفع بالتي هي احسن السيئة (سورة المؤمنين) اليس هذا ضرباً من التساهل

لا تجادلوا اهل الكتاب الاَّ بالتي هي احسن (سورة العنكبوت) ايشتم من هذه الاية رائحة التعصب

التساهل اذن هو الناموس وهو الطريق وهو النور وهو معطي الحق وهو الحياة وهو روح الله . هو اول نجاح العمران وآخره هو الالف وهو الياء

التساهل هو البـاب ومن يدخل فيه لا يهلك فلندخل اذاً فلندخل ! فلندخل ! ! فلندخل ! ! !

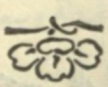

المقالات

وصية فواد باشا السياسية [1]

قيل ان دخول الحقيقة قصور الملوك لمن اصعب الامور . وهي حقيقة جديرة بالنظر . فلو تأملها الساسة العثمانيون والمصلحون لكانوا يقلعون عن مخاطبة الحاكم في اصلاح شؤون الدولة . فالحاكم لا يُصلح . الحاكم يحكم . وعلى المحكومين اذا كان النير ثقيلاً ان يخلعوه و ينبذوه . على المحكومين اذا كان الحكم ظالماً ان يصلحوه او يأبوه .

فالحاكم الظالم مظلوم مثل رعيته و كفاه متاعب الحكم وعذابه متى بدأ النير يثقلقل على رقاب العباد . لو كنت انت الحاكم ايها القارىء المظلوم وجاءك و زيرك ذات يوم يقول : قد تخلع النير وتفكك يامولاي فماذا تقول له اذا كنت لا تستطيع اصطناع او ابتياع نير جديد اتأمره بان ينزع النير المخلع او يصلحه ؟ لا فانك تقول له . اصلحه وثبته في مكانه . وهذا هو الاصلاح الذي يباشره الملوك والسلاطين اذا كان يرجى منهم اصلاح وجدير بنا ان نذكر ان الاصلاحات التي جرت في الدول الاجنبية لم تكن الاَّ نتيجة القسوة التي استخدمها الشعب نحو حاكمه . والشعب لا يلتجيء

(١) ترجمها الى العربية جميل بك معلوف وطبعت في مطبعة المناظر بسان بولو براز يل

الى هذه الوسيلة الفعّالة الاّ اذا افاق من سباته وتنبه الى حقوقه وتهذب شعوره نوعاً . بدل ان نوجه الكلام في وصيتنا السياسية اذاً الى الحاكم لنعلمه بان النير تخلع ويقتضي اصلاحه - بدل ان نبسط الكلام الى السلطان في كيفية تأييد وتعزيز دولة استبدادية — كان الاجدر بنا ان نبسطه الى الشعب المظلوم فنريه بعض اسباب الظلم التي تورّث البلاء والشقاء . ونهديه الى بعض الوسائل الفعالة التي تزيل هذه الاسباب

فلو وجه فؤاد باشا خطابه الى الامة بدل ان يوجهه الى حاكمها — لو وجهه الى المظلوم بدل الظالم — لكان افاد حيث اجاد . لان رأي من يطاع يؤثر في الشعب الجاهل اكثر من رأي من لا يطاع . والافراد المستنيرين يثقون بكلام وزير فقهته الحوادث وانارت العلوم فؤاده . لا سيما وفي هذه الوصية كلمته السياسية الاخيرة وكلمة السياسي الاخيرة قلما تشوبها السياسة . وقد ادرك هو ذلك اذ قال « ان الصوت الخارج من القبر لا يكون كاذباً » على انه ان لم يكن كاذباً فقد يكون مخطئاً . وقداسة الضريح لا تمنعنا من ان نشير الى هذا الخطأ . نشير اليه مع اجلالنا صاحب الوصية واعتبارنا وصيته كمجموعة آراء سياسية فيها الغث وفيها السمين . فاننا نحترم بعض السياسيين ولكننا لا نأمن احداً منهم . اما الوصية اجمالاً ففيها دليل ناصع على اختبار صاحبها الواسع وحكمته وعلى تعمقه في درس ما دق وخفي من الامور السياسية .

وفيها ايضاً من الاراء السديدة والحكم البليغة ما يسر ويدهش المتفلسفين واليك بشيء منها :

« ان ترقيات جيراننا السريعة وتأخرنا الناتج عن اغلاط اجدادنا الغير مقصودة قد اوقعنا الآن في مهلكة عظيمة لا يمكن الخلاص من عاقبتها الوخيمة الاَّ بقطع كل علاقة مع حالتنا السابقة والعمل عَلَى تجديد قوى الدولة بالوسائط العصرية الحديثة . »

وكيف يتسنى للفرد او للامة الانسلاخ عن الماضي . انها لاحدى طرق الاصلاح ولكنها ليست بالاقرب والاسهل . بل هي نتيجة لها مقدمات . وذروة ذات عقبات . فالانسلاخ عن الماضي ليس بامر سهل بل وغالباً مستحيل . واما التخلص من « اغلاط اجدادنا الغير مقصودة » فتلك مسألة اخرى ومن هذه الاغلاط غلطة مدنية عظيمة بل خرافة سياسية وخيمة لا نظنها تتسلط الى الابد عَلَى عقول الناس والامم . فان العلم يزعزعها وان كانت متأصلة في الاجيال . والزمان يهدها وان كانت راسخة كالجبال . ونريد بهذه الغلطة بل بهذه الخرافة الحكومة الملكية حيث الامة ومعظمها من الفقراء والبائسين تلزم بمعاش فرد عظيم فيها لا يتعيش قط في حياته فترضاه عليها ملكاً وتعد له الصروح والقصور وتحيطه بالحجاب والحرس وتنفق عليه (ناهيك عن ذريته وحواشيها) ما فوق مئة او مئتي الف ذهباً كل عام . ومع ذلك فصاحب التاج والصولجان اليوم قلما ينفع الامة (الف

سلام عَلَى ملوك الزمن القديم) واما في زماننا فهذا الفرد العظيم يكون اما خيالاً كملك الانكليز واما مقلقاً كامبراطور المانيا واما ظالماً كـ ....

ولكنهم كلهم يظلمون متى استطاعوا الى الظلم سبيلاً فالحكومة الملكية غلطة من اغلاط الاجداد لا بد ان يصلحها العلم والزمان في كل مكان . وهناك غلطات اخرى ذكر صاحب الوصية بعضها . فالماضي من هذا القبيل يا اسيادي لا يتسلط الى الابد عَلَى المستقبل . والتقاليد لا تستعبد الامم الى الابد . فان القوى الكامنة في المستقبل الغير المحدود لا تقوى عليها سلطة محدودة هي ابنة اربعمائة او الف عام . بل من المستحيل ان تخضع الابدية لبضع ساعات زائلة ونسبة القرن الى الابدية كنسبة الساعة الى الالف عام . ففي المستقبل اذاً دول جديدة ورجال ومن وراء المستقبل ينظر الله بعين واحدة الى ذوي المحاريث وذوي التيجان

- اما الترقيات الحديثة التي يروم فواد باشا ادخالها الى الدولة فانها في راينا لا تكفي لتعزيزها واصلاح شؤونها . لان السكك الحديدية والتلغرافات والتلفونات والقوات الكهربائية والبخارية كافة تزيد الامة قوة ولكنها لا تزيدها عقلاً . تزيد الملك مناعة ولكنها لا تزيده علماً والامة اليوم افقر الى نور العلم الصحيح منها الى نور الكهرباء . هي احوج الى التهذيب منها الى السلاح ولعمر الحق ان الامة المهذبة لامضى سلاحاً في يد الدولة . نحن الان افقر الى مدارس راقية وطنية منا الى السكك الحديدية . واما اذا وضع حجر زاوية هذه المدرسة عند حدّ خطوط

« السكة » فلا باس بالاثنين . واذا كان ذوو الامر يعاملوننا مثلما كان احد الامراء الاشحاء يعامل ذويه فيقول لهم : اليوم تاكلون اما لحماً واما عنباً اختاروا احد الاثنين فجوابنا حاضر « امسكوا علينا البخار والكهرباء الان واسسوا لنا المدارس الوطنية . دعونا نسافر كما كان يسافر اجدادنا ولو فترة اخرى من الزمن . حكيم عَلَى حمار خير من حمار في السكة »

لنعد الان الى الوصية فقد جاء فيها : «ولزيادة الايضاح اقول ان دولتكم العلية اذا لم يكن لها قوة انكلترا البحرية وقوة فرنسا العلمية وقوة روسيا العسكرية فلا يمكن سلامتها »

فقوة فرنسا العلمية تكون لنا في مستقبل الزمن اذا تاسست في المملكة اليوم المدارس العمومية الوطنية المجانية الاجبارية وامتنع فيها تعليم الاديان لتتخلص رويداً رويداً من التعصب الديني الذميم الذي لم يزل ينخر في عظام العظام والمستنيرين منا وتاسس من الجامعات الدينية المتعددة جامعة وطنية عثمانية واحدة عندئذٍ يصير لنا وطن ننتمي اليه وتمد من العلم قوة تساعدنا عَلَى ادخال الترقيات الحديثة الى بلادنا بواسطة شركات وطنية لا شركات اجنبية . فتعزز اذ ذاك الدولة مادياً وادبياً وتتمكن قليلاً قليلاً من مساواة الروسية بجنديتها وانكلترا بحريتها

قلنا ان التعصب الديني الذميم لم يزل ينخر في عظام العظام والمستنيرين من العثمانيين واليك برهاناً عَلَى ذلك من نفس هذه الوصية . فان صاحبها عَلَى ما هو عليه من سعة الاختبار وغزارة العلم ورجاحة

العقل يظل متمسكاً بما يدعيه « اغلاط اجدادنا الغير مقصودة » وينسى مراراً تلك النفس الراقية فيه . فترينا نفسه الفطرية ما يحاول ان يخفيه . فقد جاء في كلامه عن الدين الاسلامي والدين المسيحي (وليته لم يطرق هذا الباب) ما يلي :

« ومهما بلغ عدد الزاعمين بان الدين الاسلامي هو الحاجز دون ترقي هيئتنا الاجتماعية فانهم جميعهم في خطاء عظيم وضلال مبين ...

فالدين الاسلامي لتجرده عن قواعد سرّ الثالوث والعصمة قد رافق مجرى الترقيات الكونية »

ولسنا نحن من الزاعمين بان الدين الاسلامي هو الحاجز دون ترقي الامة ولكننا من الزاعمين بان السفسطة تستولي حتى عَلَى عقول الوزراء والشعوذة ابداً تستهويهم . فاذا كان سرّ الثالوث يؤخر في ترقي الامة ويضر في صالح الحكومة وجب ان تكون حكومتنا العثمانية ارقى بدرجات من الحكومات المسيحية لتجرد دينها الرسمي عن هذه الاسرار . واذا كان الدين الاسلامي قد رافق مجرى الترقيات الكونية كما يزعم صاحب الوصية فلمَ لا نرى لهذه الترقيات اثراً في دولتنا العلية ؟ لا والله فاننا نحترم بعض السياسيين ولكننا لا نأمن احداً منهم . فانهم دائماً يؤثرون الحقيقة الوقتية الزائلة عَلَى الحقيقة الدائمة الابدية واذا كان الفرق بين الاثنتين غير باد للقارىء اللبيب فبكلمة ابسط نقول ان السياسي يستخرج دائماً من ظروف الاحوال شيئاً من الحكمة

السطحية ويدمغها بدمغة الحقيقة السامية . ولولا ذلك لخلت اقوال فواد باشا من التعصب والتناقض . وهل ممكن ان تتوحد كلمتنا وتتحد عناصر الدولة المختلفة اذا كان وزراؤنا يتغرضون لغير داع ويتعصبون ؟ خذ لك مثالاً آخر من هذا التغرض والتحامل . فان صاحب الوصية يشارك الفلاسفة في ذم الاكليروس ولكنه يبتعد عنهم منددا حينما يتعرضون للدين الاسلامي . امعن النظر فيما يلي :

ويجب عَلَى الباب العالي ان لا يغمض الطرف عن المساعي التي ستبذل في سبيل اتحاد كنيستي الارمن والاروام وان يساعد جهده عَلَى انتشار المعتقدات الفلسفية بين التبعة المسيحية لانها ترفع عن عاتق بني البشر نفوذ الاكليروس »

واما التبعة الاسلامية فهي بغنى عن مثل هذه المعتقدات ! نعوذ برب الناس من شر المنطق والقياس . فاذا كانت المعتقدات الفلسفية تنفع البشر فَلِمَ يتمنى نشرها بين المسيحيين دون المسلمين ؟ لا والله لا . اننا نذكر من المصلحين العثمانيين من كانت نواياه انظف وانزه من نوايا فواد باشا . فهو ضمناً يود لو ازالت الفلسفة الدين المسيحي . عَلَى ان الاعتقادات الفلسفية اما ان تكون مضرة بالاديان واما ان تكون نافعة فاذا كانت مضرة فالدين المسيحي لا يستحقها وحده واذا كانت نافعة فلا يجوز ان يحرم منها الدين الاسلامي . ارأيت كيف ان الاقوال تسقّط الرجال هل اتضح لك ان بعض السياسيين لا

يستحقون النعوت الشريفة التي ينعتهم بها الشعب الغافل . نحن نعلم وكل عاقل يعلم ما للاكليروس بل لرجال الدين عَلَى الاطلاق من النفوذ السيء عَلَى الامة ولكننا لا نقبل ان يقال لنا ذلك عَلَى سبيل التعصب من سياسي يود اذلالنا . فاذا شاركنا اخواننا المسلمون في انتقاد الاكليروس فليذكروا دام فضلهم بان البطريرك والامام صنوان وان الشيخ والكاهن اخوان . والسلام

تركيا الجديدة وحقوق الانسان (١)

الكتاب النفيس هو الذي تشعر وانت تطالعه بان نفس الكاتب تتنفس في سطوره وخلالها · هو الكاتب الذي لا تجد في صفحة من صفحاته شيئاً من جراثيم القنوط · هو الكاتب الذي يجري دم الحياة الراقية في كلماته · ويشع نور الاخلاص من سطوره · وتتوفر فيه المادة التي تغذي النفس فتنعش فيها الامل وتحيي منها العزيمة والارادة · هو الكاتب الذي يولده العلم مقروناً مع الاختبار والحماسة مقرونة مع التفكر والجرأة الادبية مقرونة مع الحكمة · بل هو الكتاب الذي تتجلى فيه النفس البشرية والذكاء البشري والصناعة الكتابية في ارقى واجمل صفاتها وان لم يكن كتاب صديقي جميل افندي معلوف من هذه الطبقة العليا فهو من اعلى طبقة دونها ·

ولعمري ان الكتاب الذي ينبه العثمانيين في هذه الايام الى ان الامة العثمانية في بداية ثورة عظيمة · وان الثورة السلمية لا تغني عن الثورة العملية شيئاً وان التفرنج الحقيقي هو تمول لا تفرنج · وان التمدن كالهواء والنور مشاع لا حجة للافرنج فيه · وان مدارسنا الاكليريكية والسلطانية هي المستنقعات في ارض الحرية العثمانية الجديدة ·

(١) تركيا الجديدة وحقوق الانسان تأليف جميل بك معلوف — طبع في مطبعة المناظر بسان بولو برازيل

وان الحكومة الدستورية ومجلس الامة لا يسلمان من الخطر ان لم تصلح حالة العثمانيين الاجتماعية باصلاح العائلة وحالتهم الادبية باصلاح المدارس . وان من الخطاء ان تضع حجراً واحداً من البناء الجديد قبل ان يسقط البناء القديم باسره . وان استناد الشرقيين على الدين في احوالهم العالمية يقضي على مستقبلهم السياسي والاجتماعي والادبي وان الحرية متى حلت ارضاً لا تسمح ببقاء نصف اهلها عبيداً بينما النصف الآخر احرار . وان الحكومة التي تستعبد رعيتها يسلط الله عليها حكومة اقوى منها فتستعبدها . (وما ظالم الاَّ ويبلى باظلم) وان الثورة التي تنفع حقاً شعوب الارض هي التي يقوم بها المصلحون على المبادىء الفاسدة التي لا يقوم بها السياسيون على الحكومة — الكتاب الذي يصدع بمثل هذه الحقائق هو حري بالاعتبار . الكتاب الذي فيه مثل هذه المنبهات والمقويات لامة دوختها المظالم السياسية وخدرتها الخرافات الدينية هو حقاً جدير بان يطالعه كل عثماني .

على ان المؤلف حباً بوطنه يفادي في بعض المواطن بحكمته . فقد يطلق العنان لحماسته في مضمار ضيق فيضطر وقد بدت له الهاوية ان يقف غير موفق دفعة واحدة . وهذا هو السبب فيما جاء في بعض الفصول من تزعزع الرأي والتضعضع . فاننا لا نستصوب البحث الآن فيما قد يعود على الامة وهي لم تكد تقف على رجليها

بالنكسة والبلاء . اذ ما الفائدة اليوم من البحث في استقلال الولايات مثلا والحكومة الرئيسية لم تتخلص بعد من سيطرة دول اوروبا ومداخلاتها . وما الفائدة من البحث في اقفال المدارس الاجنبية وابطال الامتيازات الاوروبية ونحن لم نزل عاجزين . وان تحريض الشعب على مثل هذه الامور يحدث في البلاد من القلاقل والفتن ما قد يلحق طفل الحرية منها لطمة واحدة فتقتله وتقضي علينا بالرضوخ لنير اوروبا . واما نشر ما يدعوه صديقي جميل افندي الديانة الوطنية اي ديانة حب الوطن فهذا وحده يخلصنا رويداً رويداً من النفوذ الاجنبي من هذه المدارس الاكليريكية وهذه الامتيازات الاوروبية . فمدارس (آبائنا) اليسوعيين مثلاً تضطر ان تقفل ابوابها متى تاسست ازاءها مدارس وطنية كاملة العدة مستوفية الشروط

والبوسطات الاوروبية تمنح ماموريها فرصة على الدوام متى رات ان دخلها لا يقوم بنفقاتهم . والامتيازات الاجنبية تسقط دون ان نسقط او نقوم عليها متى نبغ فينا رجال يستطيعون ان يقوموا باعمال اصحاب هذه الامتيازات حق القيام وكل ذلك ممكن يا اسيادي متى اصلحت داخلية الحكومة وظهرت فيها نتيجة اعمال الاختصاصيين الاوروبيين المشتغلين فيها الان . كل ذلك ممكن متى بدأت الحكومة تؤثر المقتدرين والمتمولين والنابغين من رعيتها على امثالهم من الاجانب حينما تنمو في الامة عاطفة الوطنية يقوم الوطنيون اذاً بما تطلبه

حياتنا الجديدة وامتنا الحرة من المشاريع الخطيرة وبكلمة اخرى حينما تنشر فيها ديانة حب الوطن الجامعة المقدسة يضعف نفوذ الاجانب ويتلاشى وتسقط الامتيازات الاجنبية كما سقطت دولتنا الاستبدادية بطريقة هادئة سلمية

هذا ما احب ان استلفت اليه نظر صديقي المؤلف لانني رايته في مثل هذه المواقف يفادي بحكمته حباً بوطنه . ولعمري هي ضحية ثمينة في كل زمان ومكان وفي اي سبيل كان

فاتحة مباركة

جاء في النطق الشاهاني كما دعته الصحافة . او خطاب العرش كما يدعى عند الانكليز . او خطاب الحاكم والوزراء كما هي الحقيقة ان السبب في فض مجلس النواب الاول هو ان الامة العثمانية لم تكن اذ ذاك اهلاً لحكومة نيابية . وهو عذر سياسي لا عذر حقيقي . وان روح مجلسنا الاول لتتميز غيظاً لدى استماعها هذا الكلام . وكاننا بها تقول — الكذب محذور في الدين ولكنه مباح في السياسة . وكيف لا تكون الامة اهلاً لحكومة نيابية ومفاوضات المجلس في ذاك الحين ادهشت حتى الاوروبيين ! فضلاً عن ان الحاكم بامره يستطيع ان يفسد ويستبد . بل الحاكم المطلق العادل الحاكم المحب رعيته العامل لخير امته يستطيع ان يقلب حكومته الاستبدادية الى حكومة نيابية في ليلة واحدة اذا شاءت جلالته . ولا ينجم عن مثل هذا الانقلاب السريع ما يضر بالامة او يقلقها . لان من اطاع مليكه وهو ظالم يعبده لا شك وهو عادل . وما حدث في الامة اليابانية وحكومتها يؤيد من هذا القبيل حجتنا . واننا لنكتفي بهذه الاشارة الى ما جاء في الخطاب عن عدم اهلية الامة . لان ما مضى قد مضى ومجلس النواب قد عاد ليحيا ان شاء الى ما يشاء الله

ولكن في الخطاب مأخذ آخر للانتقاد . وعلى النواب والصحافيين ان يتيقظوا لمثل هـذه التمويهات السياسية وليذكروا دام فضلهم بان حكومتنا النيابية اليوم لم تزل مكتنفة بظل حكومتنا الامس المظلم الكثيف . والى ان تخرج من تحت هذا الظل وتنفض عنها غبار السياسة القديمة سيبقى التمويه سائداً بين العرش والنواب او بين الحكومة والامة . وانها والله لفاتحة غير حميدة ونحن في فجر حياة جديدة . لان الحكومة التي تخرج من باب العسف والظلم فتدخل توًّا باب التمويه والمواربة لا تكون قد حققت امال الامة والوطن . اذا ماذا عسى ان يراد في ما جاء في خطاب العرش من ان السبب في اعادة مجلس النواب هو ان الامة — والسعي في الثلاثين سنة الاخيرة لنشر المعارف كان متواصلاً — اصبحت الآن اهلاً لان تحكم نفسها بنفسها . فهل يراد بكلام العرش ان الفضل للحكومة في نشر المعارف والعلوم في الامة ؟ او ان بين الوزراء من يحسن المجون ويجد حتى في هذا الوقت فرصة للبداعبة

ومن يجهل ان الحكومة الماضية سعت سعياً جميلاً لنشر العلوم والمعارف بواسطة المراقبة ؟ ومن ينكر بان الجاسوسية كانت لها يد طويلة في زرع بذور الحرية ومن لم يعلم بان نور الحق والمساواة كان ينبعث عَلَى المآبين من قعر البوسفور . وان اشعة الدستور كانت تنعكس عَلَى العرش من منفى الاحرار ومن نجومهم الآفلة ؟ اجل ان حكومتنا

في الامس كانت تروض الامة وتؤدبها لتكون اهلاً لحكومة نيابية · فالمراقبة والجاسوسية استاذا الامة الماهران والبوسفور والمنفى هما الفلق والقضيب · والحمد لله قد تحررنا بعد ان تكسرت رؤوسنا وارجلنا ·

ان حكومتنا النيابية اذاً لهي من مكارم حكومتنا الاستبدادية · شيء والله جميل — فمن يقول الآن ان العوسج لا يثمر ثمراً طيباً ؟ بل ان دستورنا هو من بنات مكارم « مالك رقاب العباد » لا نتيجة سعي الاحرار والجند لرفع النير عن رقاب العباد · فان كان كذلك فلمَ لم يتكرموا به قبل ان جمع نيازي جنوده واستل انور حسامه ؟

لا يا ايها الاخوان لا يحق ان يقال ذلك في هذا الزمان · واعلموا انـنا في زمن لا يرد فيه تيار العلم مهما اشتدت المراقبة ولا يطفأ فيه مصباح الحرية مهما تعاظم الظلم والاستبداد · وان ما جاءنا من امواج هذا التيار ومن نور هذا المصباح فمن روح الزمان جاء لا من ارباب العرش والتيجان · وقد تحررت الامة العثمانية الان وحبطت مساعي من حاول دفع هذا التيار العظيم واطفاء هذا المصبـاح الكريم · ومن المغالطات ان ظلم الحكومة الماضية واضطهادها الاحرار وضغطها على المطبوعات الخ تدعى كلها في خطاب العرش « السعي لنشر المعارف » فاذا كانت الصحافة لا تحتج عَلَى مثل هذا الادعاء والنواب لا يتحذرون من مثل هذا التمويه فخالتنا في نور الدستور والحرية لم تزل كما كانت في

ظلام الظلم والفساد

اشرنا في بدء كلامنا الى ان النطق الشاهاني كتب بمؤازرة الوزراء او على الاقل بمؤازرة الصدر الاعظم وكل خبير في شؤون الحكومات الملكية يعلم ان خطاب الملك لا يكون من قلم واحد ورأى واحد بل هو غالباً نتيجة جلسات عديدة ومفاوضات طويلة بين الحاكم ووزرائه . ولو فرضنا ان الملك يستقل في عمله هذا كما يفعل امبراطور المانيا مثلاً فلا بد من ان يطلع عَلَى كلامه الوزير الاكبر قبل ان يلفظه فيغير وينقح فيه ليوافق الاحوال . . وخطاب العرش الى مجلس نواب الامة العثمانية لا يستثنى من هذه القاعدة . وفي الوزراء من هو من جمعية الاتحاد والترقي عَلَى ما نظن او فيهم عَلَى الاقل من اذا اصدر منشوراً باسم الجمعية يردفه بلفظة « المقدسة » فهل بدأت زعماء الاحزاب بالمجاملة والمخاتلة يا ترى . لا سمح الله . ولكن العبارة هذه اي « السعي في نشر المعارف » هي مقصودة لاشك والمقصود فيها ايها الاخوان التمويه والمواربة . وانصار جمعية الاتحاد والترقي في مجلس الوكلاء يعرفون ذلك ويغضون الطرف ساكتين . وما ضرهم لو اعطوا الان كل ذي فضل فضله . وتحروا الصدق في اول خطاب من خطب العرش لمجلس الامة . ما ضرهم لو اهملوا في الاقل ذكر امر لا يستطيع ان يوارب احد فيه دون ان يشعر بنفور في نفسه من نفسه اذا لم نقل باستياء الناس طراً

ومجلس النواب لم يستحسن هذا التمويه عَلَى ما ظهر لنا . وكنا

نود لو عبر عن استيائه بطريقة ايجابية لا سلبية . فقد انبأتنا البرقيات انه عند الفراغ من تلاوة الخطاب لبث النواب صامتين ولم يفه احد منهم بذاك الدعاء المعروف الذي طالما رددته الامة في الزمن الماضي . وهذا عَلَى ما نظن هو هو جواب النواب عَلَى مواربة العرش وتمويهاته . عَلَى اننا كنا نود لو فاه احد الاعضاء عَلَى الاثر بكلمة احتجاج وجيزة . ولكن اذا اظهر المجلس استياءه بطريقة سلبية فعل الصحافة وهي خير صلة بين المجلس والامة ان تظهر ذلك بطريقة ايجابية . على الصحافة ان تبرهن الان بانها متنبهة متيقظة . وان من حقوقها ان تطالب المجلس والعرش بحقوق الامة . وان ترد الفضل في نشر المعارف والعلوم الى مكانه وذويه

العفو العالي

جاء في الارادة السنية التي قرأها علي جواد باشكاتب المابين · في مجلس النواب ان « قد صدر العفو العالي عن العساكر الذين اجتمعوا في هذا النهار (يوم سقوط وزارة الاتحاديين) فلا يسألون عما فعلوا » وقد علمت الامة جمعاء ان من نتائج اجتماع بل هياج العساكر المتمردة قتل ناظر العدلية وعضو من اعضاء مجلس الامة · فما معنى العفو ياترى وماذا عسى ان يكون وراء هذا التسامح الشاهاني الجميل

ان الاعتداء على احد النواب · ناهيك عن قتله · يعد اعتداء على المجلس كله بل على الحرية والدستور بل على الامة باسرها · ولكن من يعفو عن انصار الجهل والتعصب اليوم وان عدوا بالالوف يعفو غداً عن انصار النور والحرية وان عدوا بمئات الالوف · اليس كذلك ؟ وان مراحم « جلالة مولانا » لأوسع من السماء · فاصدقاء الدستور واعداؤه — الاحرار والخونة كلهم — يقيمون في ظلها الظليل آمنين · أليس كذلك

ولكن الريب خلة في بعض الناس · ولا غرو اذا وجد في المجلس من ارتاب بحسن نيات جلالة مولاه فقام يعترض عَلَى ما جاء في الارادة السنية فيما يختص باجتماع العساكر يوم قتل ناظم باشا

والامير محمد ارسلان . ولا فرق ان اصدر المرتابون احتجاجهم من المجلس او من المكان المختبئين فيه . فان مجلس النواب في مثل هذه الايام هو حيث يجتمع او بالحري حيث يختبئ النواب

ومن جميل اخلاق الشرقيين و بالاخص الاتراك ان الشدة وان انستهم واجباتهم المهمة لا تنسيهم فروض اللياقة والمجاملة فقد قرأنا في صحف الاخبار رسالة تعزية من الرئيس الجديد للمجلس الى والد فقيد الوطن والحرية . ورسالة أخرى على شكلها من الصدر الاعظم فقلت وهل هذا ياترى اهم ما توجبه عليهم الوطنية اليوم . هل هذا ما يتطلبه منهم الدستور و يفرضه عليهم اليمين الذي اقسموه . انظل الى الابد عبيد المجاملة والمصانعة . أفي مثل هذه الدمعة الكاذبة تسر الامة ويتعزى آل الفقيد . اما كان اجدر بالنواب ان يبعثوا الى المابين كلمة احتجاج على ما جاء في الارادة السنية فالمثل - ان العفو من شيم الكرام — لا يصح دائماً

غداً يهيج الجنود ثانية فيقتلون اخر من النواب فتصدر الارادة السنية بالعفو عن القاتلين . وكلما قتل احد اعضاء المجلس يفر هارباً من يخاف على جلده ولا يخاف على شرفه ويمينه . فلا يمضي والحال هذه شهر واحد حتى تخلو كراسي النواب كلها فينعب فوقها ثانية غراب التقهقر والظلم ويقهقه تحتها شيطان المكر والدهاء والخيانة . ابمثل هؤلاء النواب تنتصر الحرية ويتعزز الدستور ؟

في عهد لويس السادس عشر قبل انفجار بركان الثورة بسنة واحدة رفض البرلمان في باريس ان يصدّق عَلَى قرض اقترحه ناظر المالية ليمونه سداً لعوز الملك والحكومة . فجاء في اليوم التالي لويس بذاته — وامر البرلمان ان يصدّق عَلَى هذا القرض فابى ثانية وقام دِسبر يمنيل فاغلظ الكلام لجلالته وصرح بحقوق البرلمان عَلَى الحكومة. فخرج الملك ووزيره محتدمين غيظاً وبعد ايام جاء الضابط داغوست ومعه فريق من الجند وبيده امر بالقاء القبض عَلَى دسبر يمنيل فدخل المجلس وقال - جئت بامر الملك . فقابله الاعضاء ساكتين واجمين ثم قال وبما انني لا اعرف احدكم دسبر يمنيل اطلب اليه ان يقف لان بيدي امراً . . . فقاطعه الاعضاء قائلين — كلنا هذا الرجل ولم يقف منهم احد فخرج داغوست وجنوده يؤمذ مثلما خرج مولاه ووزير مولاه في اليوم السابق

فان كانت هذه وطنيتهم بل هذه حماستهم وجرأتهم في امر يعد طفيفاً ماذا ياترى يفعلون لو قتل الجنود احد اخوانهم عَلَى باب المجلس . ايسمحون العفو عن القاتلين ساكتين . ايكتفون بتعزية اقاربه ويؤجلون البربيمنهم الى ان يزول الخطر . أتمتهن حرمة الدستور وكرامة مجلس الامة . ايعتدى عَلَى الحرية وانصارها . ايهرق دم النواب عَلَى باب مجلس النواب ظلماً وعدواناً فيفر الجبناء من الاعضاء هاربين ويظل الباقون منهم ساكتين . اليس الاعتداء

عَلَى احدهم اعتداء عليهم اجمعين ·

امر لويس السادس عشر بنفي دسبريميل احد اعضاء البرلمان فاجابه البرلمان بصوت حي — كانا هذا الرجل · غمست حراب فريق من العسكر بدم الامير محمد ارسلان فعفى السلطان عن الجانين وسكت النواب عن عفو السلطان · وكاني بهم يشكرون الله عَلَى سلامة دمائهم الكريمة ! وهذا ايها الاخوان الفرق بين الشرقيين اليوم والغربيين في مجالسهم النيابية وتجاه ملوكهم

ان الحراب التي صرعت الامير محمد ارسلان حاولت صرع الحرية والدستور · بل هي حراب اشربت سم الخيانة من اعلَى مورد في الحكومة فاذكروا هذا ايها الناس ولا تنسوه ايها النواب ·

الحرية وحدها لا توحدنا

اني ممن يقولون بالطريقة البطيئة الثابتة في اصلاح الامم والناس. اني ممن يرتأون ان لا خلاص للشعوب من الجهل والجمود والخمول الاّ بالتهذيب والتربية . وما الثورة عندي سوى امثولة صغيرة في تهذيب النفس وتثقيف الاخلاق . لاننا اذا تعلمنا ان نثور على المستبدين والظالمين من اسيادنا نتعلم ان نثور حتى على انفسنا متى كنا من هولاء الظالمين والمستبدين . وهذا لعمري اهم من ذاك . ولكننا لا نحسن نحن السوريين لا هذا ولا ذاك . نحن قوم تعددت في بلادنا المدارس الاجنبية وكثر فينا التقليد والادعاء . كنا بالامس في مقدمة الشعوب بالرضوخ للضيم والاستسلام للهوان . وصرنا اليوم في مقدمة طائفة من الناس لا يحركون في سبيل الامة سوى القصبة واللسان

ومتى كثر في الامة المرشدون والناصحون المتربعون بدست السيادة بشر تلك الامة بالهلاك . بدل ان تنصحني ساعدني . بدل ان ترشدني سر امامي . اذ ما الفرق يا ترى بين منافق يناهض حاكماً مستبداً ولص يندد باللصوص والقتلة ؟ ما الفرق يا ترى بين متعصب يقول ما اجملكِ وما اسماكِ ايتها الحرية و بين شيطان يتغنى بمدح الملائكة ؟ ان الاثنين عندي سواء

على انني اجد بوناً شاسعاً بين عالم لا يعلم ان العلم انما وجد لنفع الناس لا لاثارة الفتن في الناس . ورجل عاش جاهلاً ومات جاهلاً وكان من آل الفضل في الناس . واني والله لافضل هذا الجاهل الصادق على ذاك العالم المنافق . اني لأوثر النفس الصافية الساذجة على نفس متفقهة لا تعرف من سبل الحياة الا تلك الموحلة المظلمة ولا من اماني الحياة الا تلك التي يحبل بها دود الارض وتتغذى من سم الافاعي

اجل يا اخي ان جمالاً صالحاً او اسكافاً حراً صادقاً لخير من الامراء والروساء والعلماء الذين لا يعرفون من الحق والعدل ومن الخير والاحسان ومن الاخلاص والفضل الا اسماءها

ان حاجتنا الى التهذيب اليوم لاشد منها الى السكك الحديدية والتلفونات . ان حاجتنا الى العلم الصحيح الذي يهذب الانفس ويرقي العقول ويثقف الاخلاق لاشد منها الى العلوم اللغوية والفقهية واللاهوتية والخنفشارية . والتهذيب الصحيح ينبغي ان يعم عناصر الامة باسرها على السواء ليأتي بفائدة تذكر للامة . وعندي ان اشد الويل والبلاء انما هو في بيت يعيش تحت سقفه الجاهل والعالم معاً . ان وطننا بهذا البيت ايها الاخوان . وعناصر الامة فيه كافراد تنافرت اذواقهم واخلاقهم وتعددت صبغاتهم القومية والدينية وتباينت فيهم درجات المدارك والعلوم . فاذا ارتقى عنصر من عناصر الامة دون سواه يلتجيء غالباً الى المهاجرة اذا ظلت العناصر المنحطة واقفة في طريق ترقيه كالسد

في وجه المياه . اما الاية . ورب فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة . فالتاريخ لا يشهد على صحتها الا مرة في الالف . لان الطبيعة لا تسمح ان تكون المعجزات فيها مبتذلة . والغالب المبتذل هو ان الاكثرية ان كانت في المجالس النيابية او في الطبيعة تتغلب على الاقلية

على حكومتنا الدستورية اذاً ان تنتبه الى هذا الامر الخطير ان كانت ترجو ان ترتقي الامة وتحيا . على حكومتنا ان تباشر تأسيس المدارس الوطنية العمومية الاجبارية المجانية المجردة عن كل صبغة دينية . وان كانت لا تباشر قريباً فلا ترجُ يا اخا الحماسة كبير خير من هذا الانقلاب ومن هذا الدستور ومن هذا المجلس النيابي .

اظنك تعلم ايها القارىء العزيز ان لا غاية لي من الكتابة والخطابة والتأليف سوى نشر المباديء الحرة والتعاليم السديدة في الامة . وان من تجرد عن المآرب السياسية وعن الاغراض الشخصية المادية يرسل كلمته في الناس دون ان يراعي خاطر احد من الناس . منذ خمس سنوات عدت الى وطني من العالم الجديد وحتى الآن ما عرفت من الروساء المدنيين والدينيين الا من احب ان يعرفني او من جمعتني به التقادير . قضيت هذه المدة كلها بعيداً عن الرئاسة والسياسة فبان لي ان في طاقة الانسان ان يعيش سعيداً دون ان يتزلف من السياسيين والامراء او عمال الحكومة والرؤساء . نعم عشت محروماً هذا الشرف العظيم فكانت همومي الادبية ومتاعبي السياسية اقل

من هموم سواي من الادباء .

عسى ان يعذر القراء مني هذه الكلمة الشخصية . فما قلتها الاَّ لابني عليها قاعدة عمومية هي جديرة باعتبار كل من زاول صناعة الكتابة واحب ان ينفع الناس بعلمه وادبه . ان التقرب من العظام وبالاخص اصحاب السيادة منهم يفقد الكاتب مزية الحرية والاستقلال . هذه هي القاعدة العمومية التي قلت من اجلها كلمتي الشخصية . تكلمت عن نفسي وما كنت لافعل ذلك في غير هذه الاحوال لاؤكد لكم ايها الاخوان ان الاراء التي أبديها والمبادىء التي انادي بها انما هي ثمرة علم لا يعرف التفريق والتحزب ولا يفرق بين الجنسيات والاديان .

احب ان اردد بعد هذا التمهيد كلمتي السابقة عن المدارس الوطنية واردفها بكلمة ليست باقل منها اهمية وهي « صيحة في واد ان ذهبت اليوم مع الريح تذهب غداً بالاوتاد » ان الامة العثمانية لا تصير حقاً امة واحدة متحدة راقية الاَّ اذا تأسست في البلاد المدارس الوطنية العثمانية المجانية الاجبارية وتلقن فيها العلوم ابناء المسلمين وابناء الدهريين وابناء المسيحيين وابناء اليهود معاً بقي عليَّ ان اقول كلمتي الاخرى . اننا لا نصير امة راقية حرة بكل معنى الكلمتين الا متى صار ادباء المسيحيين وادباء المسلمين يتباحثون في اي موضوع كان دينياً او سياسياً او اجتماعياً دون ان يثير ذلك في شعب الملتين غبار الجهل وسموم التعصب . بل اذا كان لا يحق للمسلم ان ينتقد المسيحيين في شؤونهم العمومية

والاجتماعية ولا للمسيحي ان ينتقد المسلمين فلسنا والله بأمة واحدة وليس وطننا بذاك الوطن المجيد الجامع الذي يعبد في هيكله كل ابنائه على اختلاف المذاهب والعناصر والجنسيات . بل اذا كنا لا نتجرد عن صبغاتنا الدينية في شؤوننا الوطنية والاجتماعية فحريتنا ايها الناس كلمة مقولة ، واخاؤنا لفظة غير معقولة ، والمساواة عندنا قاعدة باطلة مرذولة ،

نعم يا سيدي . اذا كان اخواننا المسلمون لا يساعدوننا في نشر التعاليم الحرة في الامة . اذا كانوا لا يؤيدون قولاً وفعلاً اراء ابناء الحرية والدستور . اذا كانوا لا يرددون صدى احرار المغرب وعلمائه ومن ينحو اليوم في الشرق نحوهم من الاحرار الاصفياء والعلماء فعبثاً يحاول ابطال الدستور والحرية تجديد حياة الامة والمسلمون العنصر الاساسي في الامة . واما انتصار الجيش فلا مجد عظيم فيه ان لم يتبعه انتصار في العلم والتهذيب . لان الجيش وان دمّر معاقل الحكومة الاستبدادية فنصره لا يزيل الجهل الذي أسست عليه تلك الحكومة . وما زال الجهل سائداً في الامة . سيان عندي ان كانت الحكومة فردية استبدادية او حرة نيابية . ان لم تباشر الحكومة في تدمير حصون الجهل اذاً يعود الجهل فيدمر حصون الحكومة . ولا يتم لها ذلك الا في تأسيس المدارس العمومية الوطنية مجردة عن كل صبغة دينية حيث اولاد المسلمين والمسيحيين واليهود والدهريين يتلقون كلهم العلوم على

استاذ مدني واحد وتحت سقف واحد ومن كتاب واحد وعلى طريقة وطنية واحدة . وما هذه ببدعة انادي بها . فان مكتب الصناعة في هذه المدينة أسس على هذه الطريقة الوطنية وحبذا لو احيته اليوم الحكومة فيكون مثالاً للمدارس العثمانية العمومية الاجبارية . وعبثاً نحاول توحيد العناصر المتعددة في الامة اذا كان التعليم لا يوحد على هذه الطريقة الوطنية الجامعة الحرة

جلست مرة في قهوة من قهاوي البحر اتفرج على الناس يسبحون . تأملتهم في تلك الحالة الطبيعية وقد تجردوا عما يميز البعض منهم عن البعض وقلت في نفسي - اين المسلم الان واين اليهودي واين الكافر واين المسيحي . رأيتهم يسبحون كلهم في بحر واحد تحت سماء واحدة وهم لا يستنكفون من امواج تلعب حول قلوبهم كانها قلب واحد وتغسل اجسامهم كانها كلها جسم واحد . فقلت في نفسي متى يا ترى تصير عقولنا مرنة نشيطة قوية كاجسامنا متى تصير انفسنا كامواج هذا البحر فلا تخضع الا لناموس واحد هو ناموس الله . او في الاقل متى تصير متساهلة كابداننا فتسبح في بحر الاداب الواحد وتحت سماء العلوم الواحدة دون تنافر ودون شقاق !

نظرت الى البحر وانا جالس في تلك القهوة فرأيت هناك المدرعات الحربية الاوربية ومنها المدرعتان الافرنسيتان « لاڤريته » و « فكتور هوغو » فكرهت الاقامة في بلاد لم تزل تحتاج فيها الى مثل هذه

المظاهرات الكاذبة . وهل كنا نشاهد المدرعات الاوربية بصفة رسمية في بحرنا لو تأسست عندنا المدارس العمومية الوطنية منذ ثلاثين سنة. هل كانت تلطخ المذابح تاريخنا فتلحق بنا وبوطننا العار والشنار لو وُحّد منذ ثلاثين سنة التعليم فنمت في قلوب العثمانيين عاطفة وطنية شاملة وانتشر روح التساهل الديني في الامة ؟

لا يا اخوتي . انا لا احب ان ارى هذه المدرعات عَلَى شطوط بلادنا . انا لا احب ان يلتجىء احد عناصر الامة الى دولة اوروبية انا لا احب ان ارى « فكتور هوغو » في بحر بيروت بل احب ان اشاهد روح فكتور هوغو متجلية في ارواح ابناء بيروت . لا احب ان ارى « الحقيقة » عَلَى شواطىء سوريا بل احب ان اراها في قلوب ابناء سوريا . احب ان تحمينا المبادىء السديدة لا المدافع والمدرعات . احب ان يحمينا العلم الخالص من الغش والتعصب المجرد من كل مصلحة جنسية او دينية : احب ان يحمينا الاخاء العثماني والجند العثماني والعلم العثماني

رجل الشعب

قد مضت السنة الاولى من عهد الدستور وما ولدت حرية اللبنانيين الا الكلام وماذا يا ترى يلد الكلام وبالاخص ما كان فارغاً او كاذباً او فاسداً مبرقشاً من الكلام . قد انقضت السنة الاولى من عهدنا الجديد ولم يظهر فينا رجل جريء حر صادق . رجل عزوم ثبيت سكوت يعمل من اجل هذا الوطن عملاً واحداً صغيراً دون ان يستشير فيه كيسه او منصبه السياسي . دون ان يلتجيء الى القناصل . دون ان يستعين ببكركي التي اصبح هيكلها في جمعية الاتحاد والترقي في بيروت . بكركي وبطريركها اليوم فيلسوف تركي يحسن العبادة والصلاة مثلما يحسن العدل في السياسة والاحكام . ولكن هولاء اللبنانيين الذين يسجدون اشفيعتهم وهي في زي تركي اوروبي جديد و ينادون في الجبل بالمحافظة عَلَى امتيازات لبنان هولاء يجدفون في قلوبهم اذا صلوا ويموهون و ينافقون حيثما سقطوا وحلوا . هولاء لا يستحقون بركتك يا صديقي البطريرك . هولاء قوم مدغلون . والمدغل والمؤمن لا يجتمعان

وما قولك ايها الرفيق العزيز ! اتظننا نجد رجل الشعب بينهم . اتظن البحث عنهُ في هذا المكان يجدينا نفعاً . ألا تظننا نصرف زيتنا

سدى في مثل هذه الظلمات؟ احمل سراجك اذاً واتبعني .

من هيكل الحرية العثماني الى الهيكل اللبناني فرسخ او فرسخان . تعالَ اذاً علنا نفوز هنا بضالتنا المنشودة . ادخل وسرّح نظرك في هذا المعبد الجليل الذي شيده قبل الدستور البنّاؤن . وهؤلا البنّاؤن لا يتعشقون الاكليروس كما تعلم عَلَى انهم لا يكرهون الثوب الكهنوتي الذي يلبسونه في دور الرئاسة دائماً وفي دور السياسة عند مسيس الحاجة . هولاء الاحرار الكرام وفيهم من الشبان العالم والمصلح والحكيم وفيهم ايضاً من يحتاجون الى كثير من العلم والاصلاح والحكمة يعبدون الحرية فوق كل شيء ويفادون اليوم وغدا بكل لبنان من اجلها . فان كان فيهم من يستحق ان يكون زعيم الشعب الا تظنه يلبس الارجوان ويغطي اذنيه بقلنسوة من حرير اذ تبوأ غدا كرسي الزعامة . دعنا من المجاز . الا تظنه وان كان رجل الشعب اسما يكون فعلا رجل البنّائين . هل انت من رأينا . او لا تثق بهولاء الشبان المصلحين ؟ تعالَ اذاً نطلب رجل الشعب بين شيوخ لبنان واعيانه .

نحن الان في كنيسة الجامعة اللبنانية وفيها هيكل كبير في الصدر شفيعهم « مار نظام » له المجد وهيكلان صغيران الى جانبيه للحرية والاخاء . وما قولك بهذا المجمع الجامع اللامع . هولاء هم اسيادنا اللبنانيون الصادقون . هولاء هم الوطنيون الطاهرون الذين يبيعون املاكهم كلها ليحافظوا ان اقتضى الامر عَلَى امتيازات لبنان . هولاء

هم الابطال الذين يشترون النظام الجليل الثمين بدمائهم ودماء اولادهم ونسائهم . ايربيك قولنا ؟ الا ترى فيهم الامير والشيخ والوجيه والصحافي والكاهن و « الكرخنجي » ؟ ومن من هولاء لا يبذل النفس والنفيس من اجل « مار نظام » العزيز ! من منهم لا يحمل « المارتيني » اذا اقتضى الامر دفاعاً عن وطنه وحباً بامتيازات وطنه ؟ الا تظن هذا « الكرخنجي » يصلح ان يكون رجل الشعب وهو اقرب الناس الى الشعب واعرفهم به وانصفهم في معاملته ؟ اولا تظن ان في هذا الحبر المفضال وهو اشدهم شغفاً بحب الشعب الذي يظن الربقة في رأسه طوقاً مقدساً من سيدة حريصة . او هذا الامير ....

ما بالك تضحك ؟ الا ترى رجل الشعب بين هولاء الاسياد الغطاريف ؟ اتظنهم كلهم مثل اخوانهم الذين يعبدون سيدة بكركي في هيكل الاتحاد والترقي ؟ — اتبعني اذاً .

هذه سراي الحكومة . اتريد ان تدخل ! لا ! وانا من رايك . لماذا نضيع وقتنا وزيتنا سدى ! اشعل السراج اذاً وتقدم .

أتخيفك هذه الظلمات . نحن الان في قرى لبنان وقد خيم الليل والسكوت . أما هذا النور الضئيل الذي تشاهده في كل قرية فهو نور الجمعيات التي تضم اليها اليوم كل من استفاق مؤخراً من نومه وشفي قليلاً من مرضه — فهل تظننا نجد رجل الشعب فيها واعضاؤها عَلَى الحالة التي وصفناها ؟ امشِ اذاً ولا تيأس قد يكون رجل الشعب

في حقوي هذا الفلاح صاحب العباءة المرقعة . او قد يكون كامناً في احشاء تلك الفلاحة التي سلمت علينا . تباركت ثمرة بطنك ايتها الاخت الفلاحة وتبارك من يعرفها و يكرمها متى ظهرت في الناس لتقود وتهدي الناس

الوداع ايها الرفيق فقد صرفنا بعض الوقت والزيت في البحث عن رجل الشعب ولم نصرفه باطلاً

اما الان فقد مضى العام على عهد الحرية عندنا واللبنانيون يجتمعون و يخطبون و يتباحثون و يتشاكون و ينادون - بماذا ؟ بلا شيء . و ينددون و يؤلفون الجمعيات والاحزاب والوفود . و يحلون العقد والمشكلات بالتمويه والمسايرة والوعود .

مضى عام على حريتنا ولم يمضِ معه شيء من خمولنا ومصانعاتنا ورخائنا من شقاقنا وادعاءنا وعبوديتنا . مضى العام الاول على الدستور واسيادنا الاحرار هم اسيادنا بالامس والشعب هو ذات الشعب المفلوج الضرير الذي قضى حياته في ظلمات الجهل والعذاب .

الشعب المفلوج الضرير ماذا تنفعه الحرية والنفس فيه صماء . الشعب الضرير المفلوج ماذا يفيده قولك له « انا من الشعب انا رجل الشعب . » ان كنت من الشعب يا هذا فاسفِ عليك . ان نفسك مفلوجة ضريرة . وان كنت رجل الشعب بربك قل لنا كيف تعالج الفالج و كيف تداوي العماء . فان كان عندك دواء نافع هاته . هاته

باسم الله . داو هذا الشعب بل هذه الامة . داوها ان شاءت ام لم تشأ . داوها وان اضطرك ذلك الى تقييدها ليلة ونهاراً او سنة وسنتين لتشفى . داوها بالسيف ان كنت تتاكد انها بالسيف تبرأ .

ان كنت رجل الشعب ايها الزعيم المحبوب . ان كنت واثقاً ان العناية الالهية اختصتك لتكون طبيب هذه الامة فلا تنتظر من الصحافة شهادتها ولا من الحكومة فرمانها . ولا تنتظر ريثما الناس يسمونك و يرشحونك وينتخبونك - و بعد ذلك يرذلونك . .

ولكن قبل ان تنادي - « دوا الفالج دوا للعين » أرني ان شئت ما في خرجك . ما هذه المراهم والنباتات ؟ أليست التي يتاجر بها « المغربي » ذاك الذي درس الطب ثلاثين سنة في مغارة دانيال .

ألا تعرف « المغربي » . أما رأيته في زمانك راكباً كديشه وصيدليته في الخرج وراءه . أما سمعتهُ ينادي . دواء للراس دواء للعين . ان اعشابك من اعشابه ايها الزعيم العزيز ومراهمك هي نفس مراهمه . فالاوفق لك وللامة اذاً ان تبيع كديشك وترجع الى بيتك .

تبغ وملح للفالج والعماء . سبحان الهادي . أتظن يا زعيمي المحنك المبنك ان زرع التبغ واستخراج الملح يشفيان فالج النفس وعماءها . أتظن ان التبغ والملح يستحيلان نوراً وهداية في قلوب اللبنانيين . أتظن ان المال في صندوق الحكومة يصلح الشؤون اذا لم يكن في الحكومة من يعرف كيف يستخدم المال لخير الامة الادبي الروحي قبل خيرها المادي .

رح في سبيلك ايها المداوي اللاوي وقبل ان تكرهنا او تنسانا اذكر منا هذه الكلمة خير لك ان تكون حمالاً اوسكافاً من ان تكون مشعوذاً

ان بلاءنا ايها الاخوان من (مغاربة) السياسة الذين درسوا المداواة ثلاثين سنة في مغارة دانيال وخانيال ونافقيال وشركاوهم . ان بلاءنا من المصلحين الذين لا يصلحون انفسهم . ان بلاءنا من المشعوذين المدغلين الذين يسجدون في الهيكل التركي لسيدة بكركي . بلاء الشعب من اسياده الذين لم يزالوا يسخرونه و يرهقونه . بلاء الشعب من الذين اورثوا الشعب الفالج والعماء وجاءوا اليوم يتحببون اليه ليداووه . - « دوا للفالج دوا للعين » . ورب السموات ان كنت لا تطرد «المغربي» من بيتك يا اخي و ترمي باعشابه الى النار تموت لا شك مفلوجاً ضريراً

من المبكيات المضحكات ان تسمع اليوم من يتساءلون = ومن يا ترى يستحق ان يخلف رجل الشعب . هنيئاً لك يا رجل الشعب . فقد ارتحت في الاقل من المناداة « دوا للفالج دوا للعين » ومن دانيال وخانيال ونافقيال الذين لا يريدون ان تداوي شعبك بغير المراهم الفاسدة والاعشاب السامة

لا يا اصحابي لا يا اسيادي . ان رجل الشعب الحقيقي لا ينتخب ولا يعزل ولا يقاوم ولا يموت . ان روحه تظل حية وعاملة في الامة بعد ان يقف نبضان قلبه . ان اعماله لا تموت اذا غرست في قلب شعب حي قوي اعصابه سليمة ونظره سليم . ان اعمال الرجل العظيم كنهر

يتدفق من اعالي الجبال في اودية الهيئة الاجتماعية وسهولها . ولا يكاد يخف ماؤه او ينضب بعد سنتين او بعد عصور طوال حتى يبعث الله رجلاً اخر عظيماً فيحيي فيه الارواح التي تلاشت عَلَى ضفتي النهر الابدي . أليس من المضحكات اذاً ان نتساءل — «ومن يا ترى يخلف رجل الشعب» وهل تظن ان الزعيم الثبيت الحر الصادق كمقالة اكتبها بساعة او بيوم فتقرأها وتفهمها بخمس دقائق . ألا يخطر في بالك ان لو كان صنع الرجال العظام امراً سهلاً لكان يلد في العالم رجل عظيم كل يوم أتظن ان ارادتي وارادتك وارادة من هم اكبر مني ومنك قناصل كانوا او بطاركة بل ارادة الملوك والسلاطين تجعل «المغربي» حكيماً والمشعوذ زعيماً . أتظن ان في امكان الاحزاب ان تصنع الزعماء كما يصنع الخزاف اناء ثميناً او الصيقلي درعاً متينة . ان كنت تعتقد هذا الاعتقاد ولا تنبذه سريعاً نبذ النواة فمسيرك ومسير اتباعك وعبيدك الى الهلاك . ان كنت لا تصرع اعتقادك الفاسد يا اخي فاعتقادك يصرعك . ان كنت تظن يا صاحب السعادة بل يا صاحب الدولة بل يا صاحب الجلالة ان زعيم الناس كاناء من الفخار تصنعه كالفخاري بساعة واحدة وتكسره ان شئت بضربة واحدة فانت اما مخطيء واهم واما جاهل مكابر . وفي كلا الحالين لا خير فيك لوطنك او لنفسك لا في اقوالك ولا في اعمالك . الزعيم الحقيقي يا مولاي هو من السماء (٢٦) ونصره و كسره في يد الله . ينبغي لك اذاً ان تصلح عقيدتك قبل

ان ترفع في سبيل الاصلاح عقيرتك . ينبغي لك ان تبيع كديشك وترمي بخرجك وعقاقيرك الى النار وتقرأ في كتاب الحكمة والزعامة عَلَى عالميال وصادقيال لا عَلَى دانيال ونافقيال

ان لبنان اليوم لفي حاجة الى بطل حقيقي لا الى رجل او نصف رجل او ربع رجل او لا رجل يدعى زعيماً . نحن في حاجة الى من يستطيع ان يجمع شتات هذا المليون من ضعفاء بل من بؤساء البشر. نحن في حاجة الى بطل يحكم هذه الامة ويهديها سواء السبيل . وهل تظن ان الطبيعة في لبنان تضن عَلَى ابنائه بمثل واشنطون او ابي بكر او كرمول ولو في شكل صغير . يشهد تاريخنا انها لم تضن علينا بالابطال في الماضي . وتشهد سماؤنا وتشهد شمسنا انها لا تضن بهم في المستقبل

وعندنا ان مثل هذا الزعيم العظيم يباشر اصلاح الجيش فيضاعفه وينظمه قبل كل شيء . ثم ينظر الى الشعب المفلوج الضرير فيداويه بغير زرع التبغ واستخراج الملح وتأليف الجمعيات في القرى . لا ننكر ان هذه كلها لازمة مفيدة . ولكن الالزم منها اهم . وعلى الالزم منها تتوقف اليوم حياتنا . ان كروملنا او ابا بكرنا يا سيدي الامير لا يصيح كالمغاربة (دوا للفالج دوا للعين) لكنه يقبض المبضع بيد من حديد ويشتغل باسم الله . ان كروملنا بعد ان ينظم جيشه ينظر في البلاد الى من كثرت اموالهم وقلت اعمالهم كالرهبان مثلاً فيحاسبهم بعدل وانصاف ويبني بما ياخذه منهم المدارس العمومية في كل القرى والمدارس الزراعية

الصناعية في كل الاقضية . هذا هو دواء الطبيب الصادق الماهر لفالج النفس وعمائها .

مثل هذا الرجل اذا دخل مجلس الادارة ورأى الاعضاء يدخنون الاركيلة وينعسون يطردهم قائلاً — الى بيوتكم . دخنوا هناك وناموا الى الابد . واذا كان اللبنانيون لا ينتخبون من لا يدخن ساعة العمل وينام فانا انتخبه انا اعينه . واذا رايته يدخن بعد ذلك في المجلس اكسر والله الاركيلة عَلَى راسه »

في مثل هذه اللهجة كان كرومل يكلم مجلس نواب الانكليز . ولما رأى ذات يوم ان قد استثقل امرهم معه اخرج ساعته من جيبه ورمى بها الى الارض قائلا ان لم تستقيموا احطمكم مثل هذه الساعة » وبعدئذٍ طردهم وقال « اريد في المجلس اناساً صادقين عادلين

مثل هذا الزعيم اذا تصدد له اولئك الافاضل المحنكون المبنكون الذين ترسلهم الدول الاوروبية ليتعلموا عندنا السياسة الشرقية بل ليكذبوا عنها في الدوائر الرسمية يقول لهم « وبايي حق تتداخلون في الصغير والكبير من شؤوننا » فاذا ابرز القناصل اوامر وزرائهم يقول لاولئك الذوات الكبار « لما سالت دماؤنا في الماضي آستنا حكوماتكم وضمدت جروحنا بهذا الذي ندعوه نظام لبنان . حمتنا لتحمي نفسها من حرب اوروبية طاحنة وفي كل حال نحن لها ولكم شاكرون اما الان وقد برئ الجرح فلم نعد في حاجة الى العصابة ولا الى عناية هولاء الممرضين

قناصلكم بل قد صرنا رجالاً أصحاء نأبى الضيم والحيف مثلكم ولا نسألكم سوى هذا ان تعاملونا كما تريدون ان تعاملوا »

هذا هو رجل الشعب هذا هو بطل الامة ولا تظن ايها القارىء ان في امكان الصحافة ان توجد مثل هذا الرجل لا ولا الاحزاب ولا القناصل ولا البطاركة ولا الشعب يوجده . البطل هو ابن السماوت والارض ولا يوجده في الناس كما قلنا الا الله . فان كنت يا اخي اللبناني تشعر ان في جلدك شيئاً من البطل — ولا فرق عندي ان غطـأت جلدك هذا بعباءة مرقمة او « بالفراك الاتوركا » او بالحرير والارجوان- ان كنت واثقـاً متاكداً ان في قلبك شيئاً من نور الله اظهر باسم الله واحكمني وسخرني في سبيل الحق والوطن . اظهر فلا تظل طويلاً مجهولاً . اذا كانت تلك الروح العظيمة داخل جلدك وذاك النور الالهي في قلبك يتبعك الناس و يطيعونك بل يؤلهونك و يعبدونك .

نعم يا اخوتي نعم يا اسيادي . اني اؤكد ان السموات والارض في لبنان لا تضن علينـا ببطل لبناني في المستقبل . ولكن متى يظهر واين .. ؟ ان نبوءتي لا تتجاوز هذه الحدود .

والسلام عليك يا ابنة لبنان

تبارکت ثمرة بطنك ايتها الاخت الفلاحة . تبارکت في احشائك جرثومة الابطال . وتبارك من يراها و يعرفهـا و يمجدها متى ظهرت في الناس لتقود وتهدي الناس

الشعر المنثور

يدعى هذا النوع من الشعر الجديد Vers libres بالافرنسية وبالانكليزية Free verse اي الشعر الحر او بالحري المطلق وهو آخر ما اتصل اليه الارتقاء الشعري عند الافرنج وبالاخص عند الاميركيين والانكليز فملتن وشكسبير اطلقا الشعر الانكليزي من قيود القافية وولت وتمن (Walt Witman) الاميركي اطلقه من قيود العروض كالاوزان الاصطلاحية والابحر المرنية . على ان لهذا الشعر المطلق وزناً جديداً مخصوصاً وقد تجيء القصيدة فيه من ابحر عديدة متنوعة

وولت وتمن هو مخترع هذه الطريقة وحامل لوائها وقد انضم تحت اللواء بعد موته كثير من شعراء اوروبا العصريين . وفي الولايات المتحدة اليوم جمعيات « وتمنية » ينضم اليها فريق كبير من الادباء المنالين بمحاسن شعره الجلية المتخلقين باخلاقه الدمقراطية المتشيعين لفلسفته الاميركية . اذ ان شعره لا تنحصر مزاياه بقالبه الغريب الجديد فقط بل فيه من الفلسفة والتصور ما هو اغرب واجد .

الثورة

ويومها القطوب العصيب · وليلها المنير العجيب ·
ونجمها الآفل يحدّج بعينه الرقيب ·
وصوت فوضاها الرهيب · من هتاف ولجب ونحيب · وزئير وعندلة ونعيب
وطغاة الزمان تصير رمادا · واخياره يحملون الصليب ·
ويل يومئذٍ للظالمين · للمستكبرين والمفسدين ·
هو يوم من السنين · بل ساعة من يوم الدين
ويل يومئذٍ للظالمين

* * *

هي الثورة ويومها العبوس الرهيب ·
الوية كالشقيق تموج · تثير البعيد · تنير القريب
وطبول تردد صدى نشيد عجيب ·
وابواق تنادي كل سميع مجيب ·
وشرر عيون القوم يرمي باللهيب ·
ونار تسأل هل من مزيد · وسيف يجيب · وهول يشيب
ويل يومئذٍ للظالمين · ويل لهم من كل مريد مهين
طلاب للحق عنيد مدين · ويلٌ للمستعزين والمستأمنين ·
هي ساعة للظالمين

هي الثورة وابناؤها الحفاة . وصبيانها المسترجلون العتاة .
ورجالها الاشداء الاباة . ونساؤها المتنمرات .
وخطباؤها وخطيباتها الفصيحات . وزعماؤها وزعيماتها المتمردات .

ويل يومئذٍ للظالمين

انذرهم باغلال وسعير . بقنابل تفجر ويوم عسير .
يوم لا ينهون ولا يأمرون . ولا يطلقون فيهربون
ويلٌ يومئذٍ للظالمين

***

ألم يأتهم حديث الرومان .
يوم شغف قيصر[1] بالارجوان . ومد يده الى الصولجان .
فاذا هو صريع خناجر احرار ذاك الزمان . قتيل مهان كثير الطعان .

ويل يومئذٍ للظالمين

***

ألم نقص عليهم قصص باريس .
يوم دك البستيل وزفت المحابيس . يوم قطع رأس الملك لويس[2]
وحزت رقاب كبار الفرنسيس وفرّ الطاغون والمسيطرون من وجه هول باريس

ويل يومئذٍ للظالمين

***

١ يريد به يوليوس قيصر وروايته مشهورة ٢ لويس السادس عشر

ونبأ الانكليز ·

يوم بايع القوم بياع الجعة[1] وقالوا هذا ولي عزيز ·

يوم نادى الخمار بالناس والملك في حرز حريز ·

فاذا بالمستضعفين اشداء وشارل المليك ذليل نبيذ · بل عَلَى المشنقة يستعيذ

ويل يومئذٍ للظالمين · من كل مثمر متمرد مدين ·

ويل يومئذٍ للمفسدين · من نصر البنود الحمر المبين ·

* * *

ونبأ العالم الجديد

ألم يروا لهيب الاتون في العالم الجديد · حيث يطرح كل جائر مريد ·

حيث يحرق الارجوان وتذوب تيجان الحديد ·

حيث تحرر العبيد · ويموت الوف البشر من اجل هولاء السود المناكيد ·

حيث قام الاذل على الاعز · والوضيع عَلَى الجبار العنيد ·

ويل يومئذٍ للظالمين · يوم يمتع الله المستعبدين ·

ويطلق في الشعوب سلطان روح كمين · بل يضرم من ناره البراكين ·

بل يثير في الجموع روح الامين · روح كل زعيم صادق امين ·

يوم يهب المظلوم سيف الظالم الاثيم ·

ويذيق المفسدين حرّ عذاب اليم · في هذه الارض لا في الجحيم ·

ويل يومئذٍ للظالمين من كل مثمر متمرد مدين ·

ويل يومئذٍ للمفسدين · من نصر البنود الحمر المبين ·

(١) كرومويل وهو زعيم الثورة الانكليزية التي انتهت بقتل شارل الاول

ريح سموم

وبربك القيوم · ما الذي تظنه يدوم ·

صوت سمعته في الكروم · وقد مرّت عليها ريح سموم · فجفت الارض وعادت جزرة كثيرة الكلوم

سقطت الجفان عن فسائلها وفزعت اوراقها الى الغيوم

صوت صارخ من وراء النجوم · ما الذي تظنه يدوم ·

* * *

من صروح زاهية فخيمة · من رياض زاهرة كريمة · من بروج شاهقة عظيمة ، من معامل حديثة او قديمة · ما الذي تظنه يدوم

من اسراب منوّرة تحت الانهار · من ارتال فيها يدفعها الكهرباء او يجرها البخار · من بوارج ماخرات في البحار · من اساطيل تنذر بالدمار · من معالم ومعاهد في الامصار · ما الذي تظنه يدوم ·

من انفاق تحت الاديم ملؤها عجاجه · تنفثها وتثيرها القطر الولاّجة من قباب بين السحاب وهاّجة · ما الذي تظنه يدوم ·

من جسور فوق المياه جسيمة · من جزائر على المياه عظيمة · من جبال تحت المياه قديمة · ما الذي تظنه يدوم ·

من سدود · محكمة منيعة من خلجٍ كونتها الطبيعة · من ترع تؤلف بين البحار · وتجمع بين بعيد الاقطار والامصار · من خطوط حديدية

تطوق الارض · من اسلاك برقية تطوي المسافات في الطول والعرض · ما الذي تظنه يدوم ·

من ابنية ذات الطبقات العشرين · من احياء في المدن الكبرى يأوي اليها جموع البائسين · من معابد وبيع لا اثر فيها للدين · من اصقاع لا صوت فيها للاحرار الصالحين · ما الذي تظنه يدوم

من قصور مكتنفة برياض خضراء · من صروح الملوك والامراء · من دور الرؤساء والاغنياء · من اكواخ البؤساء والفقراء · ما الذي تظنه يدوم ·

من شرائع ودساتير ونظامات · من تقاليد وعادات وخرافات · من اديان وعقائد وخزعبلات · من دول وممالك وحكومات · من احزاب وطوائف وجماعات · ما الذي تظنه يدوم ·

صوت صارخ من وراء الغيوم · صوت ريح سموم · اي شيء يدوم ·

مهلاً مهلاً · ان هذه كلها لصالحة في ذاتها · ان هذه كلها لحسنة في وقتها ·

لكل شيء من العز والمجد اركان · لكل شيء من ابناء البطر والاشر اعوان · لكل شيء برهة من دهره الوسنان ·

ساعة او عام او قرن من الزمان · الطويل من الدهر في عين الازل والقصير سيان ·

فلا تظنها الى الابد تدوم . لا وربك القيوم . مبدع الشمس والنجوم .

* * *

الى حين يا اخي الى حين . كل ما في العالمين . اي ورب العالمين . الى حين .
وبعدُ فقل لي هل انت من الممترين . هل انت من القائلين السائلين .
وبعـد ذلك وبعد حين .

أما في زمانك تأملت المغاور في الصخور . فاذكر ان الامطار والرياح
تكوّنها . والامطار والرياح تهدمها .

ان كل ما هو محترم معبود . من اضاليل الزمان والجدود . يظل في حرز
حريز الى ان يظهر في النـاس رجل عظيم عزيز .

بطل تجود به الايام . فيصرخ في وجه الائمة والحكام . صرخة ترددها
البحار والآكام . وهو قائم على المظالم البشرية . مناضل عن الحقيقة
والحرية . باذل مهجته في سبيل الانسانية .

اجل ان كل شيء لحريز في موضعه حصين . الى ان يزلزله رجل
حصيف رشيد . او امرأة عظيمة ذات رأي سديد .

ومهما كانت حصونكم متينة منيعة . فساعة الزلزال والدمار شديدة
سريعـة .

ساعتئذٍ يتحدث الركبان في صنيع لاحد العظام جميل . او عمل لاحدى
العظيمات جليل .

اجل ان كل شي لحريز في موضعه حصين الى ان يقف امام القوم رجل

صالح ذو رأي سديد . حرّ فصيح عنيد . او امرأة صالحة ذات رأي سديد . حرّة فصيحة لسانها من حديد .

يومئذٍ يعلو صوت المطالب بحقوق المستضعفين المستذلين المستعبدين . صوت الامناء والامينات من زعماء وزعيمات عَلَى كل ظالم جبار مهين .

***

وبعد ان تلاشت ريح السموم فوق الجبال . تلاها نسيم لطيف الاعتدال . فدخلت في اثره غابة من الصنوبر كثيفة الظلال . وسمعت من خلال الاغصان . صوت المحبة والمعروف والحنان .

سمعت صوتاً يقول : ورب الاكوان . لا يدوم الا الاحسان والعرفان . لا يدوم الا السجايا الروحية الفريدة . سجايا النفس البشرية الخالدة .

لا تدوم الا آثار النهضات الجليلة . وماثر الانفس السامية النبيلة .

وما اسخف الجدل والمنطق والبرهان امام مشروع جليل . وما اوهن التعاليم الوضعية تجاه خطب جسيم وما اوهى الاقوال والاراء اذا قوبلت بنظرة من رجل عظيم . او صادفت نفحة من نفحات حكيم . عندما يرفع مثل هذا البشر رأسه وصوته ولا فرق عندي رجلاً كان او امرأة يقف دولاب الاعمال . ولا يبقى شيء عَلَى حال .

عندئذٍ يبطل الجدال . وتنكسر شوكة المال . وتحشر الرجال . وتكبر الآمال .

يومئذٍ تنقلب المجتمعات . وترتعد فرائص الطغاة الحفاة .

يومئذٍ تنقلب العادات والعبادات . وتهب على الارض الذاريات السافيات .

فيسأل السائل من وراء النجوم : اين مالكم ونفوذكم وشوكتكم . اين تقاليدكم وطرائقكم ولاهوتكم . اين شرائعكم ودساتيركم وحكوماتكم . اين حصونكم وصروحكم وسجونكم وجنودكم . اين مصانعكم ومعاهدكم . اين ذخرفكم وسفاسفكم .

فقل ان هي الا برهة من الدهر الوسنان . ساعة او عام او عصر من الزمان .

قل ورب الاكوان . لا بقاء لما سوى الجد والعرفان . والمعروف والحب والاحسان .

فهي هي الجبال الراسيات . وهي هي الحصون الواقيات وهي هي الباقيات الصالحات .

بلى ورب السماء والنجوم . لا يفلح المستكبر الظلوم . ولن تدوم الا آثار النفوس الذكية السامية ووجه ربك الحي القيوم .

تحت الرماد وفوق النجوم

﴿ تحت الرماد وفوق النجوم · ما لا تراه مما يدوم ﴾

رأيت فضيلة اليوم تجر اذيال الفخر والتبجح في شوارع الرياء وفي ازقة الورع والقداسة فكرهتها نفسي ·

ورأيت ما يسميه الناس رذيلة تقضي حياتها في ظلمات السكون والكتمان وراء ستار الخمول والنسيان فحن اليها فؤادي ·

لِمْ اذاً نبغض الاشرار · ولِمْ اذاً نعبد الابرار ·

لماذا نميل وجهنا عن الفقراء الاذلاء · ونعفره امام الاغنياء والامراء؟

ان علية القوم اوطاهم ايها الاخوان فاحذروا من تكرهون ومن تحبون ·

من تحتقرون ومن تجلون ·

وغداً ينير الله قلوبكم فتعرفون الحق وتعبدون ·

لا والله انا لا اشمخ بانفي على اصغر صعلوك ولا اعفر وجهي امام اكبر الملوك

﴿ ان تحت الرماد وفوق النجوم · ما لا تراه مما يدوم ﴾

اعلموا ان الكل في عيني سواء من الوجهة التي انظر منها الى الناس ·

كيف لا وتحت رماد نفس هذا الشرير جذوة خير حية · وفي بسنان ذاك الصديق كثير من الجذور السامة والنباتات الكريهة الرائحة ·

كيف لا وفي الصعلوك نفس تكبر اذا انطلقت من القيود والاغلال ·

وفي الملك نفس تصغر اذا جردت من ترهات الابهة واباطيل الاجلال ·

لمْ اذاً يحسد الانسان هؤلاء الاغنياء والاقوياء . واولئك الملوك والامراء ؟ ان افقر البشر حالاً . واوضعهم شأناً واقلهم مالاً . لهو من اعاظم الناس . ان كان لا يحسد احداً من الناس .

﴿ ان تحت الرماد وفوق النجوم . ما لا تراه مما يدوم ﴾

انا لا اغبط من ابناء آدم الا الرجل الحر حقاً . الحر بكل معنى الكلمة . ولكن اين اجد مثل هذا الرجل لاعبده لا لاغبطه .

اما الاغنياء والاقوياء . والملوك والامراء . - تبارك اسماؤهم - فعظمتهم اما مكتسبة اصطناعية . واما خلقية طبيعية . وجل ما في القوة المكتسبة مسروق منهوب . ومعظم العظمة الاصطناعية مختلس مسلوب العظمة العرضية الاصطناعية . هي كالسوس في عظام القوة الحقيقية . ومن يحسد السوس في العظام . او الذباب فوق الطعام . او الجراد على الاكام .

واما العظمة الخلقية الطبيعية فهي جيرٍ من روح الله .

وانا اطأطئ رأسي امام كل قوة بشرية فيها شيء من جوهر الذات الالهية . وان اسمى ما في قلب الانسان من العواطف الشريفة هي تلك التي تتجلى في اتضاعه وخشوعه امام العظمة البشرية الخلقية التي هي حقيقة الله في الناس .

﴿ ان تحت الرماد وفوق النجوم . ما لا تراه مما يدوم ﴾

داويني ربة الوادي

داويني ربة الوادي داويني
ربة الغاب اذكريني · ربة المروج اشفيني
ربة الانشاد انصريني

* * *

الا تذكرين يوم رددت وحيك بين قوم لا يشركون مع البعل الها
ويوم قدمت ذبيحة للزهرة من يد من لا يعرف من الآلهة سواها
ويوم ناديت باسمك في هيكل إيزيس فطردني من الهيكل الكهان
ويوم تصاعد دخان بخورك على الاولمب فاكفهر منه جبين رب الاوثان
انا من وضع بخورك في مجامر خدام هياكل الرومان
انا من عقد اوتارك في قيثارة راقصات بابل وقين اليونان
اونسيت ما زرعته يدي حول هيكل تموز من الاشجار
وما حاكته يدي لربة الفينيقيين من اكاليل الغار والازهار
وما خطته يدي في كتاب عبدة الشمس والنار
وما حطمته يدي من تماثيل الطغاة ودمى كبار الابرار
داويني ربة الوادي داويني
ربة المروج اشفيني · ربة الانشاد انصريني

انشديني عَلَى قيثارك من الالحان التي تردد صداها اليوم طيور الغاب وشحارير البستان

انشديني من الانغام · التي يطرف بها الرعاة الانعام

صوت نايك في الدجى · وصوت ارغنك في الضحى اسمعيني

الى صوت عبادك عَلَى ضفات الانهار · وصوت اولادك في القفار · اهديني

انشري الان حول سريري · ما كمن في الحقول من عبيري

اسكبي الان فوق رأسي · ما تركته الاحقاب في كاسي

الحفيني بحبك · ضمخيني بطيبك · انعشيني بهمس شفتيك · وبلمس انامك

رددي على مسامعي الان · ما نسيته مما علمتني من الالحان

اسمعيني الان · ما رددته عنك في مجالس قين بابل واليونان

داويني ربة الوادي داويني

ربة الانشاد اصلحيني

* * *

انا ناي الرعاة من عبادك انا عود العشاق من عبادك

انا ارغن المتشرد من عبيدك انا كنارة الراقصات ليلة عيدك

انا النفس التي تتجلى فيها جمالك · وينبعث منها نورك · وتنطبع عليها اسفار حكمتك · وترف فوقها بلابل سحرك

انا صوتك جسدته الدهور · انا روحك أُنزلت في الفيدا وفي الزبور

انا رسولك الى صفوة العباد · الى خير من زين الاحلام في المعاد · بل الى

كل من هام في كل واد
انا وحيك في نشيد الانشاد · انا نورك في نفس من سر بل التوبة بالانشاد
انا في قيثارك نغمة حبسها الجهل ضمن جدران الاهرام
بل انا اغنية رددتها الليالي عَلَى الاعوام
انا في قيثارك روح الفقنس تحت رماد المنون · بل روح ارفيوس فوق
امواج الفنون
اجل انا قيثارك · وانا صوتك · وانا نشيدك
ولكن يداً اثيمة خنقت البلابل في القيثار · وقطعت منه الاوتار
فجاءت اليوم بنات الهديل تداوي بسجعها سجعي العليل
داويني ربة الوادي داويني
ربة المروج اشفيني · ربة الانشاد انصريني

* * *

المسيني بانامك تعيدي اليَّ بهاء ملكي
عوديني في الاسحار · تشتد من نسماتك الاوتار
اغسلي جراحي بموجات من فيوضاتك الالمية
ضمدي اوتاري برقية من رقياتك الموسيقية
اعيدي اليَّ ما سلبتني الآلام من مجد الحياة الشعرية
ضميني الى صدرك بنت الازل والخلود فتزول عن جفني كآبة الاجيال
ويثمر فيَّ عقم الجدود

من يوم هجرت واياك الجفان في قديم الزمان . ما رايت اجمل من الحب
فيك الاَّ الحنان
فحتام اليوم هذا الصد والجفاء وهذا الهجر والنسيان
اذكريني ولو مرة في ظلامي
عوديني ولو مرة في منامي
انصريني قبل ان تذبل بايامي

غصن من الورد

ركبتُ في الامصار البعيدة هواي وأرحته من عنانه
غرست في بساتين الغرباء حبي فنوَّر قبل اوانه
غرسته في ارض سمراء جديدة فناحت عليه زهور زمانه
طرحت بذور حبي جزافاً ذات اليمين وذات الشمال
طرحتها في سهول الحرية فاحرقها قيظ الفوضى وداستها ارجُل همجية
طرحتها في انجاد العلم فايبس ما نبت منها الصرُّ وحملت رياحُ النزاع
البقية الى حيث لا ادري
طرحتها عَلَى شواطىء نهر الفلسفة الراكد فذوت في ظلاله الظليلة —
ماتت لانها لم ترَ نور الشمس
غرست حبي في غياض الحضارة الغيضاء فادمته الاشواك. خنقه
العلَّيق. قتلته الجذور السامة.
غرسته في ارض الاحباء والخلاّن فمات بالاستسقاء من مستنقعات
الكذب والرياء.
غرسته في حقول التجارة تجاه طواحين التمدن بين بيت الصرّاف
و بيت الكاهن فتواطأ الاثنان عليه ومدّا في قلبه البلاط رصيفاً
للصوص.

لاولئك اللصوص الذين يؤآكلون و يشاربون القضاة

ذهبت بحبي الى الفقراء والبؤساء فغرسته في ارضهم الجدباء فلم ينبت.

غرسته قدام بيت ام الحي فاقتلعته ورمته بوجهي وهي تقول: اذهب في طريقك. جاءنا قبلك مغرون فقتلوا — صلبوا — حرقوا. نطلب انصافاً وعدلاً لا تعزية ورحمة.

جزت حي البؤساء الى مغاور اللصوص والاشقياء. الى المنبوذين والممقوتين.

ذهبت فغرست بينهم غصناً نضيراً من حبي فعاش قليلاً نحيلاً ومات قبل ان يبلغ اشده.

في ظلمات قنوط المنبوذين قضى نحبه. دخان تجديف الجاحدين اعماه. خنقته روائح بذاءة اللصوص والقتلة فكفنه الفاجر بلعنته وجلقت الفاجرة فاها فوق جثته.

هجرت المدن وهذه المدنية وركبت البحار.

نثرت على المياه حبي كما تنثر شمس تموز الماسها ولآليها.

نثرته صباحاً فتلونت الامواج من شهواته. نثرته مساء فتوهجت من نيرانه الآفاق.

كلم حبي السحاب فاجابه. دعا البحر فلباه.

لمس حبي الآفاق بانامله فارتعدت وتموجت مبتهجة متوهجة.

* * *

في صبح يوم من ايام الربيع بعثت حبي رائداً في صحراء جديدة فمضى ولم يعد اليَّ .

ناديته من قمم لبنان فلم يجبني .

فتشت عليه في الآفاق ووراءها في مشرق الشمس ومغربها فلم اجده .

تركت حبي يهيم ثانيةً عَلَى وجهه .

فركب هواه مرة أُخرى وتركني اتحسر واتأسف عليه . آه عليَّ أواه عليه .

* * *

في وطني في ارض اجدادي في التربة التي ذاقت قديماً حلاوة ضربةِ معولِ رجلٍ قوي . غرست غصن ورد طري .

غرسته والآمال تدفعني والعزم يعقد شفتي .

غرسته في مكان عزيز جعلته في حرزٍ حريز بعيد عن الحضارة والناس .

لا فرق عندي الآن ان صُمَّت مسامعهم وان فتحت .

لا يهمني ان استحجرت قلوبهم او استحالت طيناً او ذابت ماءً معينا .

انتِ ايتها الارض امي وسأفرح يوم تضميني الى قلبكِ كما تضمين الغصن الذي انا الآن غارسه .

انتِ ايتها الارض حية ابداً — ابداً تحبلين وابداً تلدين .

مهما كان ظاهرك فالشعور فيكِ لا يموت . النار في قلبك لا تخبو .

الخريف يزيل الوقر من اذنك والشتاء يُلين قلبك والربيع يحرك

لسانك والصيف يريكِ ثمرة احشائك .

ومن افصح منكِ في الربيع واكرم منكِ في الصيف .

من اعظم تهيجاً وعطوفاً منكِ في الشتاء . من اشد سمعاً في الخريف .

من ارحم منكِ ايتها الارض . من الطف واشفق واحلم

تقبلين منا الاقذار وتعطينا عوضها الازهار .

تستنشقين نتانة امراضنا وروائحها وتعيديها الينا شذاءً طيباً .

تسكب لك السماء كأساً من الماء الزلال فيعكره الانسان فتفيضين عليه مكافأة خيراتك ومراحمك .

ارض اجدادي افتحي الآن لي قلبك .

لا تجهميني . لا تعبثي برجائي وعملي . لا تحبسي حبي عني دهراً .

ايتها الارض التي نقبها ابي وصلّت تحت اشجارها أُمي لا تودعي آمالي الصخور . لا تحمليها الى قمم الجبال فتموت هناك من الثلوج وشدة الرياح .

* * *

على كتف هذا الوادي الذي ردد صدى صراخي وغنائي صغيراً في هذه الارض التي هجرتها قبل ان هجرتني الصبوة غرست غصن ورد طري .

كلمت الارض بيدي لا بلساني . حصبتها ونقبتها بمعولي الصغير .

طعمتها من ذاك الاسود الذي تفرزه المواشي ومن ذاك الاصفر الذي

يكاد يشتعل في الصحراء من قبلة الشمس و يكاد يذوب عَلَى السواحل من قبلة الامواج ·

سقيت غصني من ماء الفؤاد وحجبت عنه النور في ايامه الاولى ·

رفعت فوقه سرادق ودّي وهيامي ونثرت حوله في الشتاء اوراق الخريف البالية ·

ولبثت اذ ذاك انتظر جواب الارض وحكمها ·

كم مرة زرت غصني وهززته مستخبراً فلم تبدُ عليه لا اشارة الموت ولا علامة الحياة ·

كم مرة افتقدته وقلبت فيه الطرف مستقصياً اخباره ·

كم مرة وقفت امامه والفؤاد يتموّج بين اليأس والرجاء

تبارك ارض اجدادي فقد حسن في عينها اجتهادي

تبارك ارض امي فستريني الورد عَلَى غصن تعبي وهمي

نعم الارض كلمتني · اجابت الارض سؤلي · رددت الارض صدى حبي ·

ها ان غصن الورد ينطق كالطفل

بدت عَلَى شفتيه لفظة الحياة واثمرت في قلبه الكلمة الحية التي تساقطت عرقاً من انامليِ ومن جبيني

في ثمه لؤلؤة صغيره ملفوفة بلفافة ذهبية · وفي صباح الغد تستحيل لفافة لازوردية وتبدو اللؤلؤة زمردةً نحيفة ندية

وبعد غدٍ او بعده ينشأ من الزمردة صدفة خضراء في قلبها بحور من

الورد لا ترى واجيال من الحياة لا تعد

في قلبها اوراق خضلة صغيرة ملتفة حول عرق نحيف طري لا يعرف بعد اسم الشواء ولا معناه

في قلبها اغصان وفي قلب الاغصان ورد وفي قلب الورد بذور وفي البذور الابدية والخلود .

* * *

كلمتني ارض اجدادي . احيت فيّ الرجاء ضمت الى صدرها طفل حبي وانعشته بعد ان كاد يموت .

نفخت فيه من روحها الازلي فتحرك لسانه .

هو ينطق بما تلقيه اليه من آيات الحب والجمال والحكمة والرجاء .

اين فصاحتي من فصاحتها .

الارض لا تنطق الاّ لتحيي . لا تتكلم الا لتزهر وتثمر .

ما قالت « لا » بزمانها قط . فان كان جوابها ايجاباً « فنعم » وان سلباً فسكوتاً ابدياً .

كل آياتها جميلة كل اقوالها منعشة محيية .

وليتها تعلم بنيها القول المثمر المنعش الجميل .

او ليتها تعلم بنيها السكوت .

* * *

كأني بالارض تقول : ليكن عندك ذرة من الايمان فيّ واعطني ساعة

من العمل فاعطيك عوضها مئة بل الف ضعف من الحب والرجاء من السرورة واللذة من العزم والنشاط من الحياة البسيطة النقية التي لا سعادة للانسان الا بها.

* * *

كل جرثومة عَلَى غصن الورد الذي غرسته هي لفظة من الفاظ الارض العذبة. هي رسالة حب من الام لبنيها.

كل برعم من هذه البراعم هو عقدة من عقد الكون. هو سر من اسرار الحياة.

في اي عصر ولدتِ ايتها الوردة. اي ارض شاهدت اول زهرة من ازهارك واستنشقت اول نفحة من اريجك.

من زرع بذرتك الاولى. من غرس اول فرع من فروعك.

اول غصن من اغصانك الاصلية الاولى — من نقله من الحقل الى البستان من الوادي الى حديقة الانسان.

ايتها الوردة البرّية بل الوردة السرّية من اي دغل نشأتِ وفي اي سلم من النباتات الشوكية رقيتِ.

لا تتكلم الارض الا الغازاً. الارض لا تأتمن بنيها عَلَى اسرارها.

احترز من شرك العلة الاولى. لا تبحث في اصول الاشياء.

متع نظرك ونفسك فيما تراه وتسمعه وان شئت الدخول الى هيكل سر الاسرار فتجرد عن الجسد قبل ان تطأ اسكفة الباب.

* * *

اني لأجد لذة شهية غريبة في مشاهدة هذه البراعيم الجديدة وفي مراقبة نشوئها ونموّها.

عددتهم والله مراراً كما تعد الام اسنان طفلها.

افتقدتهم مراراً كما تفتقد الطيور عشوشها

تلهفت واي تلهف عَلَى برعم واحد نثرته الرياح منها.

ولكن زمن السرور قصير. تكاد زبدة الاشياء تذوب قبل ان تجمد.

* * *

اواه صرت اخشى الاقتراب من وردتي فقد اثّت فروعها والتفت اغصانها وقسيت اشواكها.

اواه صرت انظر اليها بغير العين التي شاهدت نشوءَ براعيمها ونمو فروعها.

لهفي عَلَى وردة الحياة. تريني الف شوكة قبل ان تفيح بنفحة واحدة من شذاها

تجرحني مئة مرة قبل ان تعطيني زراً واحداً من ازرارها

فوأد (١)

١

عند مهد الربيع

عرفتك قبل ان اخضرّت من نسمتك الاولى صدور الحقول وجوانب الربى .

وقبل ان نوّر المهد من حر شفتيك .

وقبل ان بدد نور عينيك غيوم الشتاء فهدأ البحر وانجات السماء .

* * *

عرفتك قبل ان حاكت لقصورك الجبال طنافس العصفر والاقاحي والخزامى .

وقبل ان اعدت لسريرك النمارق من الرياحين وريش الصنوبر وشقائق النعمان .

وقبل ان ملأوا كأسك من دهن اللوز وماء الورد وعصير الرمان .

***

عرفتك قبل ان نصبت لك العاصفة الاخيرة قوس نصر من دمها

(١) ابن اختنه فؤاد يوسف صادر ولد في ٢٧ نيسان سنة ١٩٠٨ وتوفي في ٢٠ ت٢ سنة ١٩٠٩ فاستقبله بالقصيدة الاولى وودعه بالثانية

ودمعها وزفيرها .

وقبل ان ولت من الغيوم الباكيات واقبلت الضاحكات تجر ذيولها الفضية فوق صنين .

وقبل ان لحفتك شمس الضحى باشعة الحب والحنان .

وقبل ان رفعت فوق سريرك عند الغروب قبة من نورها الولهان .

* * *

عرفتك قبل ان سدلوا عَلَى وجهك نقاباً من الغمام ليحجبوا هناك هنيهة رب الانام .

عرفتك قبل ان عرفت عيناك معنى الدموع واسرارها .

وقبل ان ذابت عن اهدابك الثلجة الاخيرة وسقطت عليها القطرة الاولى من ندى العشق والحياة .

عرفتك قبل ان نوَّر في خديك الورد وتلألأت عَلَى شفتيك الابتسامة .

وقبل ان غردت في الغابات اطيارك وعطرت الآفاق رياحينك وازهارك .

عرفتك قبل ان سمعت اذنك هتاف الانهر وعويل الرياح .

عرفتك قبل ان عرفت من الحياة الغسق والليل والصباح .

هززت سريرك بانفاس كانت لهيباً قبل ان صارت نسيماً .

واصبحت حياة بعد ان كانت سديماً .

وكان ربك بذلك عليماً .

هززت سريرك باليد التي احترقت مراً فاستحالت مسكاً و بخوراً حول السرير الكمين.

باليد التي اكتسبت زغباً تحت رأس امير الرياحين.

باليد التي نوّر في انامِلها الجلنار وفي راحتها النرجس والياسمين.

* * *

هززت سريرك قبل ان نما الفؤاد مني آساً وغاراً تحت قدميك.

وقبل ان فاض ابتسامي نوراً فوق عرشك.

وقبل ان هطل غيمي دمعاً حول سريرك.

هززت سرير طفل الربيع قبل ان سار كليّ قسماً من سريره.

هززته في الاعماق ففاح اريجه في الآفاق.

هززته في اعلى عليين ففردت بلابله في الرياض والبساتين.

* * *

عرفتك قبل ان ودعتك السماء وقبل ان عرفتك الغبراء.

ولكنني استغربت صراخك يا ابن الربيع ويا ابن السماء.

ان لفي بكائك سراً لا تذيعه الازهار.

وان لفي سكوتك لغزاً حفظته النجوم والاقمار.

وان لفي نظراتك المبهمة الندية شيئاً من غوامض البحار.

* * *

فهل جئتنا من ألم الفراق باكياً ام جئتنا الوحشة شاكياً.

اين منك الروح التي تلقي في العيون سحراً حلالاً فيذوب حباً وجمالاً .
اين منك الادراك الذي يلتهب في العالم نجماً فيشع في الشاعر خيالاً .
بل اين من نفسك الان ما حير البرّية في الانسان .
اين منك تلك القوة التي اغلت الصاعقة واذلت البحار واسترقت الرياح والكهرباء والبخار .

* * *

اتحلم ملائكة السماء بفراش الارض وخنافسها .
او تذكر الفراشة يوم سارت تحت جناحها الشمس .
افي خطوط هذه اليد الصغيرة البضة آثار حبك النجوم واسرارها .
او تحت هذه الاهداب الناعمة قبس من نورها ونارها .
اتذكر شفتاك الكاس الذي سقتكه زنبقة الوادي .
اتذكر الغدير الذي كان يغسل قدميك يوم كنت مضطجعاً مع الدفله تحت ظل الدلب والصفصاف .
اي ابن الوادي ان فيك من بهاء الربيع ما فيك من مجد السماء .
ان لفي هذه الوردة البشرّية جذوع الماضي واريج الحاضر وبذرة المستقبل .
اقبل رجليك لانني لا انكر الماضي ولا انبذه .
واقبل عينيك لانني اراك شاخصاً الى العلاء .
واقبل سرتك لرمز فيها بليغ جميل .

ففي السرة سلسلة الحياة التي لا تتم حلقاتها ان لم تقطع.
يقطعها الانسان فيعيد وصلها الله.
فاذكر قبلاتي الثلاث ان عدت في مستقبلك البعيد الى ماضيك هذا القريب.
واذكر ايضاً ان في كل قبلة حسرة ما زادها العلم الا اشتعالاً.

* * *

عرفتك قبل ان ودعتك السماء وما عرفت من سر هذا الوجود سوى الحاء والباء.
عرفتك قبل ان عرفت الربيع وقبل ان هززت سريره الخفي.
عرفتك قبل ان اسرنا فصرنا بديع قوافٍ لشعر الهي.
نظمنا الآله واودعنا سراً من اسرار بيانه الازلي.
وقال عليكم بنجم سريع فهو فيكم ومنكم يضي.
بهاء الحياة ومجد الحياة اليكم بنوري اليكم يدي.
فجبنا نجوم النفوس عراة وفينا الخجول وفينا الخليع
اشدنا هناك بسعد تساوى الملاك العصي به والمطيع
شهدنا هناك ظلاماً تلاه بهاء تلاه ظلام سريع
وقفنا حيارى وفي الظلمتين ضياء الحياة يضي ويضيع
شهدنا الدياجي وفيها الاحاجي فهذا الاله وهذا الربيع
ذهلنا فقلنا اربي لماذا فقال اسقطوا من مقام رفيع (٨٢)

وقفنا دهشنا سألنا سقطنا جئنا وسر القريض نذيع
فديوان ربك هذا الوجود وفيه السخيف وفيه البديع
وانت ابن أختي بيت القصيد وخالك شاعر رب الربيع

٢

عند لحد الربيع

ومثل خيالي اشرقت يوماً وغبت قبيل الصباح فؤاد
ومثل خيالي انسيتني نعيم الحياة و بؤس العباد
ومثل خيالي أسكرتني فقلتُ « اليراع » فقلتَ « الحداد »
ومثل خيالي حيرتني رحلت وسرّك في ذا الجماد
بهاء جمالك في تربة عجبت لتربٍ جمالاً يعاد.
ونور عيونك في ظلمة عجبت لنورٍ شديد السواد
و بلبل نفسك في وحشةٍ — بل بلبل نفسي في تي البلاد
وحلو ابتسامك تحت الازاهر ألبس روحي شوك القتاد
فراحت الهة حبي تهيم وتبكي فؤادي في كل واد

* * *

لله انت من وردة سرّية ناطقة فرطتها يد القضاء
لله انت من شعاع فهمٍ عجيبٍ زال كالظل في البيداء
لله انت من طيرٍ اسفّ فوق بحر الحياة فذاق ملحه وعاد الى الفضاء

لله انت من طفلٍ سجدت له اطفال السماء

ايه اطفال السماء ! وهذا ربيعي اصبح ثاجاً فايت الربيع بل ليت المعاد

وليت النجوم تحدث عنه فهذه تجاليده في جماد

وحلو ابتسامه تحت الازاهر ألبس روحي شوك القتاد

بنات خيالي انيري حول خيال فؤادي في كل واد

* * *

كشفق من اشفاق الايام · كلم من جميل الاحلام كوميض برق لاح في الظلام — كذلك كان ابتسام الحبيب

كنفحة من نفحات الجنان · مرت مع نسيم الفجر في البستان فرنحت الورد والبيلسان وايقظت الشوك في القرقفان — كذلك كانت حياة الحبيب

كفراشة مختبئة بين الرياحين · امسكها عدوٌ كمين · فدفعها الى جهلة ظالمين · سمعتْ أدواتهم الانين · فبكت حظ مثل هولاء البنين — كذلك كان نصيب الحبيب

ويلاه من طب اجهز عَلَى الحب

ويلاه من طب هو الشوك في نبت غمنا · ومن طبيعة هي امنا · ومن قبور هي لحمنا ودمنا

بهاء جمالك في تربةٍ عجبت لتربٍ جمالاً يعاد

ونور عيونك في ظلمةٍ عجبت لنورٍ شديد السواد

***

ركضت حولي في الدار فعلمتني حب الصغار . حباً طاهراً صافياً كله ازهار
وقفت الى جانبي في عزلتي فكنت حبيبي وسيدي ومعلمي
فتحت امامي ابواباً عجزت عن فتحها يد حكمة الحكماء . وسددتني بما لا تضاهيه
شوكة الملوك والامراء . وهديتني سبيلاً ضلت في سبيله العلماء
انكرت سلطة المسيطرين . فجئتني وسلطتك من اعلى عليين
لله من اطفال هي ملوك في قلوب الرجال
لله من ضعفٍ صولجانه فوق صولجان ملوك الزمان
كفرت بحب الاطفال فبعثك الله اليّ رسولاً
وصرت عندما اشاهد طفلاً احييه باسمك ساجداً واقبله واجداً
انما هولاء رسل الله في الناس
رسل هم الاطفال - رسل الحب والحنان والواجب والجمال
رُسُل كلماتهم سلام . وسيوفهم ابتسام
لله من رسول انت اخلصت لك الايمان وكنت لك اطوع من البنان
ولكنك اليوم حيرّتني رحلت وسرك في ذا الجماد
ومثل خيالي اشرقت يوماً وغبت قبيل الصباح فؤاد

* * *

اقمت في وادينا صيفاً واحداً كنت فيه الصيف والربيع وكتبت في
قلوبنا آيات هي خلاصة البيان والبديع
نظرت الى السماء مساءً فادهشك كوكب هناك

مددت يدك الى القمر كأنه راحة في ذراك
سمعت انغام الموسيقى فطربت لها كأنها بنات بديهك وذكاك
عطفت عَلَى الازهار واحببت الرياحين كانما صنعتها يداك
حسدك الحسون عَلَى زقزقتك . والحمام عَلَى حركاتك والورد عَلَى شذاك
حييت كل عابر طريق باسماً وفي كل امرئ حييت اخاك
كدت تشعر بالخطوب قبل حدوثها فادمعك قبل ان يدمنا بلاك
كللناك بالورد والغار يا حبيب الرياحين والازهار
وفي ربيع السماء الخالد دموعنا طلٌّ في الجلنار
بل زهور في افلاك تدار
بهاء جمالك في تربةٍ عجبت لتربٍ جمالاً يعاد
ونور عيونك في ظلمةٍ عجبت لنورٍ شديد السواد

* * *

من هضاب جللتها السماء الى مدينة خيم فوقها البؤس والشقاء
حملناك والغم يحملنا الى منبت التمويه والتلبيس والادعاء
الى حمى الاطباء
ضُربت في موطن الفهم والنور . فكان داؤك ذكاك دماغ هو
النبراس في غشاء هو القرطاس
ويلاه من هذا الشهاب . وهذا الالتهاب
في فترة من الزمان سقيت من مر الحياة مما يغص به جبابرة الزمان

يوم اسففت وقمت فكنت احجية في داءك كما كنت احجية في ذكائك
قال المداوون وقالوا · وضربوا في ميدان الحدس وجالوا · وانت بعيد
عن جهل هو عندهم اليقين ·
مددوك عَلَى لوح التشريح وانت مسرع الى من لا يحدس في شؤون العالمين
اشمموك المخدرات وانت في غنى عن هاته الترهات كيف لا وقد اشلك
الداء وخدرك الدواء
جاء الجزار واعوانهُ بادواتهم وعقاقيرهم · واحاطوا بك ليبعدوك عن
ملائكة اسرعوا الى لقائك
بضعوا الجلد · كسروا الجمجمة · اجالوا ادواتهم في الدماغ — ويلاه
من اطباء يخبطون بل من جزارين يجزرون
قطبوا الجرح · لفوا رأسك بالشاش · كفنوا وجهك الاصفر باوهامهم
ضمخوك بروائح العذاب والموت · وتركوك عَلَى سريرك ·
لامك لايبك لخالك · لربك
كفناك باغشية قلوبنا وكلناك بالورد والرياحين · بكيناك باسم كل
ما احببتهُ واحبك في وادي الامين
بهاء جمالك في تربةٍ عجبت لتربٍ جمالاً يعاد
ونور عيونك في ظلمةٍ عجبت لنورٍ شديد السواد
وحلو ابتسامك تحت الازاهر البس روحي شوك القتاد
فراحت آلهة حبي تهيم وتبكي فؤادي في كل واد

النفس الراحلة

تذكاراً لراهبل دربان المتوفاة في ١٣ ايار سنة ١٩١٠

على ابواب الجنة تنتظر الارواح احبابها
بل تنتظر الاحباب ارواحها
آه على المحبين · المودعين والراحلين

* * *

اقف عند جثماني · لاودع اصحابي وخلاني
ومن فوق نعشي · احيي الاعزاء المودعين
تخذت الموت منبراً · فرأيت من علاه مالا ترون · وسمعت مالا تسمعون
جموعٌ مثلكم يعولون في شمال الارض وجنوبها · وارواح مثلي ينتحبون في السفينة التي تعبر نهر الموت والحياة · من ابناء الارض عظماء وعظيمات
هم رفاقي الآن الى الجنان
فلا تيأسوا · ولا تجزعوا
الموت خرافة مرهبة · الموت صورة فانية · الموت منبر الخلود · الموت هو الدرجة الاخيرة من سلم العذاب · فلمَ تنحبون · ايها الاحباب

على ابواب الجنة تنتظر الارواح احبابها
بل تنتظر الاحباب ارواحها
آه عَلَى المحبين ، المودعين والراحلين

* * *

ما بالكم تنحبون . اواه ودمعة الفراق من يكفر بها دمعة الوداع من يجهلها ؟
دموعكم كالوابل المتساقط عَلَى بحر هاجت امواجه
دموعكم تسكن الرياح
دموعكم تنوّر حول الراحلين زهراً وتتكون في صدف الحب لؤلؤاً ودرًّا
دموعكم نور يضيء ساعة الفراق المظلمة الموحشة
دموعكم نقط كلمات سفر الحياة
دموعكم ازهار عَلَى ضفتي نهر الاحزان ودموع الراحلين طلٌّ في كؤوس هاته الازهار
آه عَلَى المحبين المنتحبين . المودعين والراحلين

* * *

ساعة ازمعت الفراق . بدت لي اشياء من هناك — من وراء الكواكب والاقمار
ساعة علت صيحة الاحباب . رفعت اليَّ اعلام جميلة من خلال الضباب

عَلَى ضفاف انهر الابدية · في ظلال السدر الندية · رأيت الراحلين ·
عَلَى فرش من السوسن متكئين · وسمعت اطياراً تغرد حولهم ·
« الى حين ايها المنتظرون الى حين »
في تلك الظلال احبابي حيث الورد لا يذوي والربيع لا يزول
حيث الحب يلعب متلهياً عن التنائي في جمع اصداف الحزن ولؤلؤ الرجاء
هناك عَلَى احدى الروابي · انتظر احبابي
وانسج لهم من ازهار الدموع والسرور · اكاليل مجد لا تبور
وادخل وايامهم بيتاً جميلاً خالداً من الحب والحبور

* * *

عَلَى ابواب الجنة تنتظر الارواح احبابها
بل تنتظر الاحباب ارواحها
آه عَلَى المحبين المنتحبين · المودعين والراحلين

معبدي في الوادي

ايهِ ام الطبيعة بل امي . جئت اجدد معك آمال الحياة وسرورها .
جئت اجدد عهدي وايماني مع كلاء الحقول وزهورها .
جئت اردد تحت هذه الافنان الخضراء . ابتهال ابنائك الاتقياء .
وقفت عَلَى ضريح الشتاء ليلاً . فشاهدت هناك مشهداً جليلاً .
شاهدت ربة الربيع تقبل جبين ابيها . فينور الاقحوان تحت شفتيها .
رأيتها تكتب بدموعها سفر الخلود . فيردده العصفر في الجلمود .
ورأيت الاولاد في الحقول حفاة . يقطفون الزهور لخير من تألم في الحياة
فقلت في نفسي ونعم الايمان . في قلوب الصبيان .

* * *

ان في قلبي اليوم شيئاً مما في قلب جاري . وفي قلب الغاب اثراً من اثاري .
ألا ان قلبي في عقل هذا القروي وعقله في قلبي الخفي . والذي يراه تحت الكلاء اراه انا في السماء . والذي يراه في الارض المنبثق منها نور العالمين . اراه في اكمام الورد او في براعم الياسمين .
فاذا كنت ارى ذلك في الحقل فلماذا ابرح الحقل ؟
ألأسمع في الكنيسة وعيد من لا يعرف من اسرار الحياة سوى ما

قرأه في كتب اللاهوت والصلاة .

ان في ورقة من اوراق التوت . سراً لا يكشفه اللاهوت .

الى الوادي اذاً . هناك بين اشجار البطم والزمزريق وتحت ادواح الصنوبر والسنديان . اشيد هيكل الايمان

اراني هنا في بيتي . بل في بيت الطبيعة . بل في بيت الله .

ورفقائي هم حقاً احبائي . هم اخواني . حباً بحبي وايماني .

ان هيكلي لقريب من سلسبيل فضي ذهبي يجمع بين الدم الجاري في العروق والصبيب المتصاعد في الاشجار واللبن الذي يجدد في النبات حياتها وفي الازهار اريجها والوانها . ومنبر مرشدي هو مرسح الانشاد والتغريد . لا منصة التحذير والوعيد .

اسمع همس الافنان . وهي تسبّح في قلبها الرحمن . وقد احياها النسيم العليل الذي جاءها اليوم من بلاد الجليل

* * *

سماعِ قد بدأ الدوري بتلحينه والسنونو بانشاده .

سماعِ ان من حلق الحسون الذهبي تتدفق الانغام الفضية

ان الاطيار تدعوك الى تجديد ايمانك وامالك في الحياة .

هي تفتح لك ابواب السماء مغردة . ولا تبعدك عنها متهددة .

هي تدعوك الى العمل . وتنفخ فيك روح الجد والامل .

اي ربة الغاب ان رؤساء هيكلك يرددون صدى نشيد الربيع لا صدى

منطق « الغوري » والمعضلات ·
وشتان بين « الغوري » والدوري · و بين الحسون والخوري ·

* * *

في ظل القويسة والغار · و بين الصعتر والوزال والخنشار و بالقرب من ضحضاح يشف عن نباتات حية تحت الماء وفوق النهر الجاري تحت قدمي هـذا الوادي الرهيب ابني لك ايتها النفس هيكلاً من من الايمان يؤمه في المستقبل البعيد من اخواني والقريب ·
بل اقيم فيه تمثالاً للوداد والاخاء وادعو اليه كل بشر تحت السماء ·
فيه احيي اليوم انفس المستقبل ومستقبل الانفس العظيمة
وحياتي لا تزري بحياة الخنافس والدبابات · لان الناموس الذي يحركها تحت الكلاء يحرك النجوم في حبكها والسيارات في بروجها ·

* * *

ان الاريج المنتشر من هذه الادغال هو البخور الذي يحرقه الربيع على مذبح الحياة والايمان
هو اريج الزعرور والقندول المختبئة اشواكهما الآن تحت نقاب جميل من الازاهر الصفراء والبيضاء
بين هذه الادغال الشذية وتحت شعاع ابتسامة الاشواك يلذ لي التأمل في من مات ليحيي الحب والوداعة في الناس
بين هـذه الاشواك تحملني تصوراتي الى حيث وضع الاكليل على

رأس رأسِ الشهداء ؛

عَلَى ان الزمان لم يبق منه سوى الازهـار التي تنوَّر كل عام في قلوب الاتقياء مثلما ينوّر القندول والزعرور في الغابات

باسمك ايتها النفس الالهية اصنع لايماني اكليلاً من ازاهر الزعرور لا من اشواكه

باسمك أُشيـد لحبي هيكلاً من خشب السنديان وازينه بالصنوبر والنيلوفر وباقار البيلسان

والى اتباع الذي صُلب و بني الذين صَلبوا اقول : تعالوا نسبحه اجمعين في وادي المسرّة لا في وادي الدموع. تعالوا نتصافح تحت السماء . حيث لا حاجز يحول دون الحب ولا ما يحول دون الاخاء.

انّا غريبان ههنا

او

جمعة الآلام

كلمة همسها النسيم في اذن رعاة الجليل فسمعتها الدهور ورددتها الاجيال

كلمة من اغصان الزيتون في اورشليم زلزلت العروش واسمعت ملوك الارض صوت ذي الجلال

كلمة زرعتها دموع المرأة تحت الصليب · فنورت في السماء وكان فيها مسك ختام النحيب

هي كلمة الربيع في كل عام · بل نشيد الاطيار عَلَى الدوام · بل اغنية الازاهر في الحقول والاكام

وان انفس الناس النبيلة · لتتجسد في مظاهر الربيع الجليلة

ان في كل نفحة من نفحات الربيع · روح بشر عظيم وديع

ان العام في هذه الايام · يحتفل بفوز امراء الحب وملوك السلام

وان اكليل الشوك لاعظم من تيجان القياصرة · وكأس المر لأطيب من خمرة الاكاسرة — وقد يدرك هذا الانسان · فيظل من عبيد الزمان بل من اسراء الغرور والبهتان

* * *

جئت الكنيسة لاردد اليوم مع الناس · ذكر امير النـاس · بل ذكر
الحقيقة التي يعز نصرها بالعذاب · وتحلو بمر الشراب

دخلت الكنيسة وفي نفسي من احد النخل والزيتون ما لا ينسيني اياه
يوم الجمعة الاليم

بل في نفسي من السرور والابتهاج ما لا يضاهيه فرح الناس في العيد العظيم
ان في هذا اليوم يجتمع القمر والشمس · فيشرق الغد عَلَى المستقبل ·
و يشرق عَلَى الحاضر الامس

في مثل هذا اليوم ولد عَلَى الصليب الكريم · روح بشرٍ صميم
انه ليوم حبور ايها الاتقياء · لا يوم حزن و بكاء · بل لبس ورياء

* * *

وانما نحن في جنازة المسيح · وهذا وربي تجديف قبيح
ان وراء ذاك الستار الاسود الصليب · وامامه الاباء ووجه كلٍ
قطوب كئيب

هم يجزنون من لا يعرفون · بل يدمدمون و ينعبون · والنـاس اليهم
شاخصون

و يلاه أأنا الوحيد الذي لا يرى ما يراه الآباء · ولا يشعر بما يشعر به
هولاء الاتقياء

ها قد مشى في الجنازة المدمدمون · وهم في الكنيسة يطوفون
وهذا الصليب · وقد تصاعد وراءه النحيب · وامامه البخور والطيب

وصل الموكب اليَّ . فما جثوت عَلَى ركبتي
سرحت في الناس نظري فرأيتهم كلهم ساجدين . ورأيت بمقرب مني
رجلاً آخر من الواقفين .
فقرأت في وجه هذا الغريب . مـا خالج قلبي الكئيب . وصرخت
سا كتاً — الهناء انا غريبان ههنا .
ثم كلمت الغريب فقلت — ولمَ الجناز . ومن صُلب قد فاز .
ولمَ هذه الصلوات المبكية . وقد اشرقت عَلَى الارض ابتسامة آلهية .
فمال بالنظر اليَّ . ولم يجبني بشيء .

* * *

ها قد دفنوا الصليب تحت الزهور . وانجلت غيوم البخور .
وطفئت الشموع . وكفكف المدمدمون الدموع .
خرجنا من الكنيسة انا والغريب . ونفسي تناجي ذاك الحبيب .
فسرنا معاً الى بستان من الزيتون خارج المدينة .
وجلست تحت شجرة هناك فجلس الغريب الى جانبي .
نظرت اليه ونظر اليَّ . وقد استولى علينا السكوت والعي .
فكاننا حبيبان . فرق بينهما العرفان . فجمعهما الحب والحنان .
وفي مثل هذه الساعة تفسح اللحاظ . عما تعجز دونه الالفاظ . عَلَى
انني حرت في امره العجيب وقلت في نفسي من ياترى الغريب .
وما كاد يخطر ذلك في البال . حتى وقف امامي كالخيال .

فعرفت الطيف في الحال . وقد انكرتهُ في شكل الرجال .

وناديته مدهوشاً اخي — رفيقي — سيدي — هذافؤادي ها يدي .

نفحةٌ من جنانك كلمة لاخوانك

اسمعت خدامك ينعبون .

التمثالك الناس يسجدون . وهم عنك بعيدون .

سيدي دعني القي عَلى كتفك رأسي . فيذوب ثلج فتوري و يأسي .

اقربني من فوءادك . لأتزود من الحب الذي لا يعرفه احد من عبادك .

سيدي اسقني من الحرية والحق والاخاء ما لا يشوبه الخوف والرياء .

* * *

و بين انا اكلمهُ في البستان . طل البدر من شرفة لبنان .

فتركني ذو الجلال . مكانه كالخيال . وذاب في القمر فوق الجبال .

عشية رأس السنة

قم ايها الناعس المتقاعس · قم ايها اليائس من الحياة
قم ايها العالم الفاتر الشعور القليل الاكتراث
قم ايها البخيل النائم عَلَى الصكوك والاوراق والكواغد
قم ايها المقامر العبوس المكتئب وقم انت ايها المسرور المحبور المبتهج
قم ايها الساخر بافراح الشعب البسيط
انهضوا كلكم واخرجوا معي الى اسواق المدينة هذه الليلة
انهضوا من رقادكم · اخرجوا من سجونكم · اطلقوا النفس من قيودها
أحيطوا بهذا الجسم النحيل · اعطوني اياديكم ولا تخافوا
تعالوا معي ولا تأسفوا عَلَى شيء فات او مضى
اسمعوا اسمعوا · ان الابواق تناديكم باصواتها والاجراس تستقبلكم
بالحانها · والليل يبتسم ابتساماً لخروجكم

* * *

نعم نحن في منتصف الليل
ولكن شمس تموز في رائعة النهار لا تنير الارض كما انارت المدينة ليلتها هذه
ازاهر ايار كلها لا تبهج النفس وتفرجها كازاهر هذه الانوار
كيف لا ومن اصوات السرور في الليل ينوّر الاثير في الفضاء وتزهر
جنان الجوزاء

تعالوا واياي الى اكبر شارع واجمل جادّة اريكم هناك جمعاً عجيباً من البائسين والبائسات يموجون كالبحر الهائج ويهتفون هتافاً عظيماً جميلاً وما هذا الشعب بشعب ثائر · بل هو محبور فاز بالحياة ساعة بعد ان عاش في حياض الموت خلال العام المنصرم

الي لنرى احقر الاكواخ واظلم المضايق واقذر ازقة المدينة اريكم هناك اغنى الناس واكيسهم · ارفعهم واشرفهم

قد جاء واهذه الليلة ليآسوا الفقراء ويعزوهم جاءوا ليتفقدوا شؤون البؤسا ولكنهم قصدوا الاكواخ والمضايق والازقة فوجدوها خالية خاوية في هذه الليلة يخرج الغني من قصره · والفقير من كوخه · والبائس من سجنه · والعبد من قيوده · في هذه الليلة يتحرر الانسان

* * *

اليكم ايها الساخرون بافراح الشعب البسيط

تعالوا معي الى الملاهي فاريكم انها مهجورة والى رداه الرقص فاريكم انها مظلمة · والى مجالس الانس لتروا كيف هي فارغة والى بيوت الشعب فتشاهدوها مزينة باغصان النخل والشربين والانوار الصينية المنوعة الالوان · في هذه الليلة يتحرر الانسان ·

يتحرر الانسان ولو ساعة واحدة في رأس كل عام ·

ولو ساعة واحدة في السنة تتساوى افراد الامة وطبقاتها ويخرج البشر من السجون التي بنتها البشر

تنطلق الرجال من القيود التي صنعتها الرجال

في هذه الليلة لا يذكر الانسان شيئاً سوى انه حرّ سعيد محبور ·

ينسى الفقير كونهُ فقيراً و ينسى الغني كونهُ غنياً و ينسى الشريف كونهُ شريفاً و ينسى البائس كونهُ بائساً · وينسى الفاعل كونه عبداً

ان فرح الناس في هذه الليلة لعظيم · تكاد المدينة تضيق على ما في قلوب اولادها من السرور والابتهاج

نعم في مثل هذه الليلة يخرج الانسان من كل ما بناه الانسان وشيده الملاهي والحانات والمعابر ورداه الرقص و بيوت اللذات كلها - كلها لا تشفي له غليلاً · كلها ضيقة مظلمة · كلها صغيرة واطئة ·

لا شيء هذه الساعة في العالم يستحق ان يقف الانسان تحته متهللاً ممجداً الاّ الفضاء غير المتناهي · الا السمآء الشهبآء المرصعة بالنجوم المزينة بالكواكب والاقمار

في هذه الليلة يخرج اولاد المدينة و بناتها ورجالها ونساؤها ليودعوا العام المنقضي وليستقبلوا العام الجديد ·

يطوفون في الشوارع متهللين فرحين نافخين في المزامير والابواق هاتفين هتاف الصبيان في الاسواق · وهذا ورب الناس جميل ·

* * *

هلموا اليّ أيها الساخرون بافراح الشعب البسيط

تعالوا فانظروا كيف يسير الغني بجانب الفقير في هذه الليلة · والشريف

بجانب الفاعل . والصالح بجانب الاثيم . والصاحي بجانب السكران . والكاهن بجانب الجاحد

تعالوا وانظروا كيف العاهرات المومسات يمسسن بمناكبهن مناكب الطاهرات من النساء والعذارى من البنات

وكلهم رجالاً ونساءً صبياناً وبناتاً يهتفون هتافاً واحداً ويسيرون تحت سماء الله اول ساعة من العام الجديد بين الحان الاجراس واصوات المزامير والابواق

بين صفوف طويلة من الابنية الشاهقة المنوَّرة المزينة بسعف النخل واغصان الصنوبر والشربين

يموج هذا الجمع موجاً في الشوارع والازقة

يموج والكتف الى الكتف وكلهم في الانسانيــة اخوان واخوات لا يعرف الواحد منهم الآخر .

بل كلٌّ يعرف الجمع باسره

لا ضغينة هذه الساعة ولا بغض ولا حسد

لا حقد هذه الليلة يكدر صفاء قلوب الناس

نعم يسير الشريف ازاء الفقير ولا يتقزز من رائحة ثيابه

يسير الصاحي قبالة السكران ولا يشمئز من رائحة فمه

يسير الجاحد والكاهن ولا احد منهما يعفر خده ويشمخ بانفه

يسير الصالح والاثيم معاً مبتسمين

تسير العذراء قرب الزانية ضاحكة مستبشرة
والكل يهتفون هتافاً واحداً و يفرحون فرحاً واحداً

* * *

رحماكم ايها الساخرون بفرح الشعب العام
عودوا واياي الى زمان الصبا والطهارة
ان بين هذا الشعب المزدحم ولداً سورياً غريب السحنة نحيل الجسم
اسمر اللون مفلطح الرأس طويل الارنبة غليظ الشفتين
يفتح بمكبيه طريقه و يتقدم مع رفاقه الاولاد الاعاجم هاتفاً هتافهم .
نافخاً مثلهم في البوق . مردداً اغانيهم ونكاتهم قاسماً ايمانهم لاعناً في
الاحايين لعناتهم

* * *

مَن لا يأسف على زمان الفتوة وايام اللهو والسرور الطاهر
من لا يقول هذا القول المبتذل و يردد مراراً في ايام الكهولة هذا
الكلام المطروق
و يلاه أمن اليوم اندب الصبوة . اتخدعنا السنون نحن شبان هذا
العصر اتسقينا كأساً واحدة وتتقاضانا ثمن خمسين ومئة
أتكسر الهة الشباب الكأس بعد ان ترينا اياها
اقسم بالله ايها القارىء ان الساعات التي قضيتها في تلك الليالي لألذ
واجمل ساعات شبابي

بل هي ألذّ ساعات قضيتها حتى اليوم – ساعات سرور بسيط طاهر صبياني
ولكن الساقي كسر الكأس وحطمها
اواه سحق الساقي الكأس وسقاني مسحوقها
وان طعم هذا المر ليذكرني اليوم بتلك الكأس الواحدة العذبة
يذكرني اليوم بتلك الليالي فاضحك عندما اتأمل فيما كنا نقوله ونفعله
انا ورفاقي الاعاجم
اي والله حتى اني لم ازل اذكر اسماء بعضهم من صبيان وبنات
واذكر كيف كنا نخرج لنودع العام المنقضي ونستقبل العام الجديد
وكيف كنا نقف عَلَى منعطف الشارع كل مع حبيبه ونعد الوعود
ونعقد العهود
رحم الله الاحباء ووداده‍م. رحم الله الحبيبات وعهودهنّ
والآن ولا سمير للروح سوى الطبيعة ولا رفيق غير الكتاب وبعض
الاحرار الصالحين الذين تهواهم الاذن وتتشوق الى رؤياهم العين
غير ان المناجاة تغني في الاحايين عن المصافحة
ويا ما احيلى من نتعشقهم عن بعد قانعين صابرين

تم الجزء الثاني من الريحانيات

فهرس الكتاب

صفحه		صفحه	
٣	في الباب	١٥١	تركيا الجديدة وحقوق الانسان
	الخطب	١٥٥	فاتحة مباركة
٧	في العزلة	١٦٠	العفو العالي
٢٤	هنا وهناك وهنالك	١٦٤	الحرية وحدها لا توحدنا
٣٣	الحرية والتهذيب	١٧١	رجل الشعب
٤٢	الثورة الادبية		**الشعر المنثور**
٥٦	المدينة العظمى	١٨٣	الثورة
٦٦	قيمة الحياة	١٨٦	ريح سموم
٨٣	همات وشكسبير	١٩١	تحت الرماد وفوق النجوم
٩٢	حول المساواة	١٩٣	داو يني ربة الوادي
٩٧	الشعب والسياسيون	١٩٧	غصن من الورد
١٠١	في وصف بيروت	٢٠٥	فؤاد
١٠٥	في لبنان	٢١٥	النفس الراحلة
١١٣	التساهل الديني	٢١٨	معبدي في الوادي
	المقالات	٢٢٢	انا غريبان ههنا
١٤٣	وصية فؤاد باشا السياسية	٢٢٦	عشية راس السنة

بالنظر لطبع هذا الجزء مدة تغيب المؤلف في لوندرا قد وقع فيه
بعض اغلاط مطبعية لا تخفى على الناقد البصير